إصدار متميز
Special Edition

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

حول الدين والدولة

About State & Religion



Dr. Naguib Al Keilany

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



حول الدين والدولة

About State & Religion



دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
Mobil: +20 1114520485
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

حول الدين والدولة

تأليف

د . نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع

2015/13323

الترقيم الدولي

978-977-255 -470 -6



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060

موبيل: 00201114520485

daralsahoh@gmail.com

هذا الكتاب



إن اصطراع الفكر في عالمنا الإسلامي الكبير -مهما كان الأمر- ظاهرة صحية، كما أن عنف الجدل الصاخب، يحمل في طياته الرغبة في بلوغ الحقيقة، الكل يحاول جاهدًا أن يقول الكلمة الأخيرة، تلك الكلمة التي تلح غالبًا على من لديه الاستعداد لقولها..

وهناك قضايا إسلامية كثيرة تفرض نفسها بقوة، أعني تفرضها متطلباتُ حياتنا العصرية، ومعاركنا الشرسة مع الأعداء أولئك الذين تسلحوا بكل أنواع الأنانية والحقد والطمع.. ومن هذه القضايا قضية الدين والفن، والدين والدولة، والدين والحرية، والرسالة الكبرى التي أنيطت بالأزهر الشريف وعلمائه..

إن كل واحدة من هذه القضايا تحتاج إلى أكثر من كتاب، ولكني هنا أحاول أن أضع علامات متواضعة على الطريق الطويل لأمتنا المناضلة، فهذه الكلمات مجرد أصابع تشير، أو

قناديل صغيرة تحاول مستميتة أن تبدد بعض الظلمات المدلهمة، ويقيني الكامل أن الكلمات وحدها مهما كانت قوتها ليست قادرة على التغيير المنشود، والكلمات إذا لم تتحول إلى طاقة عاملة، وسلوك فردي وجماعي، وحركة دائبة، وإصرار صارم، فلن تخلف وراءها سوى الصدى الميت..

كل أمل أن تصل هذه الكلمات إلى شبابنا وأن يناقشوها بصدق وإخلاص، ولعلها تكون حافزًا لهم كي يتجهوا إلى تراثنا الإسلامي العظيم، ويحاولوا تمحيصه والاستفادة منه، إن هذه الكلمات مدخل صغير لأمور كبرى، وهذا ما أردته. والله يوفقنا لما فيه الخير والحق، ويجمعنا على كلمة سواء..

نجيب الكيلاني

مقدمة



في الفكر الإسلامي بديهيات لا تحتاج لمناقشة أو استدلال، غير أن هذه البديهيات قد تعرضت في عصرنا لمحاولات متصلة هادفة إلى تشويه هذه البديهيات وطمس معالمها. لقد أدركت الصليبية والصهيونية والإلحادية أن عظمة الفكر الإسلامي وتراثه الحضاري يشكلان عقبة في سبيل تحقيق أهدافها المشتركة، ومن ثم انقضت بكل ثقلها عليهما، متخذة أبشع الوسائل وأخبثها لتوهين عرى الصمود الإسلامي، وزعزعة الثقة به.

والمفكر المسلم لا يصح أن يقف مكتوف الأيدي أمام هذا التآمر التاريخي الطويل، بل عليه من آن لآخر أن يعرض في إيجاز وتركيز، وبطريقة علمية واضحة، أسس الفكر الإسلامي ولبناته، حتى ولو كانت من البديهيات التي سلم بها الأولون، والتي يسلم بها اليوم العاملون في حقل الدعوة الإسلامية..

ومكان الفكر الإسلامي في أجهزة الإعلام مكان ضيق أو محدود، بل ومعدوم في بعض الأحيان، وإزاء هذا التحدي

والتعصب لابد للفكر الإسلامي من اختراق الزحام، ومجابهة التحدي، والوصول إلى أجيالنا الحائرة، وهو واجب يفرضه الدين على كل حامل للقلم، وكل مالك لزمام الكلمة المطبوعة والمذاعة.

وأجيالنا تخوض معمعة مصيرية، وهي في أمس الحاجة للوقوف إلى جوارها، وتزويدها بالكلمة الأصيلة، ومعاونتها في الخلاص من إغراءات الزيف والانحراف المتسترة وراء شعارات التقدم والعدل الاجتماعي.

ويؤسفني أن أقول أن بعض المسلمين - أو كثرة غالبة منهم - قد استخزوا أمام الزحف الفكري الذي تنشره الصهيونية ودعاة المبادئ الإلحادية، فلم يستجيبوا لهذا الزحف بغير اليأس والانتفاضات الهستيرية، ولو بذلوا بعض الجهد في التنقيب عن تراث فكرهم الأصيل لاستطاعوا أن يحيلوا هذه التخبطات إلى حركة إيجابية، تقف سدًّا منيعًا في وجه ذلك الحق التاريخي والفكر المنحرف، ولاستعصى على أي دخيل أن يدمر كياننا، ويمزق «الوجدان» الإسلامي الذي وقف صامدًا نظيفًا قادرًا على مختلف الحقب والأزمان.

وفي كلمات قصار سوف نتحدث عن إحدى المشاكل، وهي مشكلة الدين والدولة، إن صح أن تسمى مشكلة.

وعشمي أن يسارع حملة الأقلام المسلمة، في معالجة ما يجب عرضه من قضايا اجتماعية أو أخلاقية أو اقتصادية أو فنية أو سياسية في إطار العقيدة الإسلامية السمحاء، دون تردد أو وجل.



حول الدين والدولة



﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة:49].

الدين والدولة، الدين والحكم، الدين والسياسة: إن مثل هذه المصطلحات لم يكن لها وجود على الإطلاق في عصور الإسلام الأولى، أعني لم يكن هناك ما يسمى بفصل الدين عن الدولة، وأحسب لو أن مسلمًا أو غير مسلم قد فكر في إثارة هذه القضية أيام الرسول ﷺ أو في عصر الخلفاء والتابعين، لكان مناطًا للسخرية والاستغراب، ولانصرف الناس عنه، ورموه بالجنون والخرق.

كان الأوائل يفهمون الدين فهمًا شاملًا متكاملًا، يرونه أصولًا وأحكامًا موحاة إلى رسول الله، ويرونه نسيجًا واحدًا يضم الأخلاق الخاصة والعامة، يتناول حياة الفرد وحياة الأمة، وينسق العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ويرسي أسس السلوك الفردي والجماعي إبان الحرب والسلم، ويدبر شئون الزواج والطلاق، والجريمة والعقاب، وحتى آداب السلوك الإنساني فيما يتعلق بالطعام والشراب، والنوم واليقظة، والصدق

والكذب، وله نظريته الخاصة في المال العام وميزانية الدولة، والمال الخاص المملوك للأفراد، ومعاملة الزوجة والأبناء والخدم، وعلاقات الدولة الإسلامية بجيرانها من الدول على مختلف نظمها وأزيائها ولغاتها وأجناسها. وكان لاختيار الحاكم طرائق عدة، تجتمع كلها على أساس واحد من الشورى والعدل والكفاءة، والاختيار الحر المباشر على صورة من الصور، وكان الحاكم ملزمًا بسياسة معينة تحددها مبادئ الإسلام، وتغذيها شريعته، ومن انحرف عن هذه السياسة كان جديرًا بالعقاب، ونزع الثقة عنه، وتقويمه حتى بالسيوف، وكانت الرعية في ظل القيم الإسلامية، قادرة - أو لها الحق - في إعادة الحاكم إلى الصواب إذا ما أخطأ، وهو بشر يخطئ ويصيب، وليس له قداسة أو مسحة الهيئة، تحميه من حساب العامة له، ورده إلى الجادة إذا ما انحرف.

والذين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة، إنما يقولون: «الدين علاقة بين الفرد وربه»، وهي كلمة حق أريد بها باطل، فهم يقصدون منها حصر الدين في مجموعة من الشعائر كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها. وهذا التحديد أو التضييق إنما هو فرية لم يؤيدها واقع الدين وتجربته الرائدة في العصور الأولى، ولم يدعمها نص قرآني، أو دليل من السنة، أو رأي من آراء الفقهاء

قديمًا أو حديثًا. ومن ينكر أن عدل الحاكم، وتعففه عن الدنايا والظلم والانحراف، إنما هو خلق ديني أصيل، بل وانعكاس طيب، أو ترجمة عملية، لشعائر الله وفرائضه من صوم وصلاة وغيرهما. والعلاقة بين الفرد وربه، إنما هي علاقة مؤداها خلق الوازع الديني، والضمير الحي، والرقابة الذاتية، وبدون هذه الأشياء، لا يستقيم خلق، ولا تترعرع قيم، ولا يسود عدل، ولا تنتشر فضيلة؟!

والآن، لنطرح سؤالًا مهمًا في صلب هذا الموضوع، فإن البحث عن أسباب العلة وظروفها، قد يؤدي إلى الدواء الناجع، والشفاء الحاسم في كثيرٍ من الأحيان.. الذي أطرحه هو: إذا كان هذا هو أمر الدين والدولة في البداية، فكيف نبتت هذه المشكلة؟ وكيف نادى البعض، حتى من بعض المسلمين أنفسهم، بفصل الدين عن الدولة؟..

إن هناك عدة ظروف قد ساعدت على ظهور هذه المشكلة المفتعلة الغريبة عن الإسلام ومبادئه وأهله..

ففي أوربا، ساد صراع رهيب طويل بين الكنيسة ومنازعيها على السلطة. إن للدين المسيحي طبيعته ومبادئه، وكان لرجال الكنيسة سلوكهم ومفاهيمهم الجامدة. ومن منا لا يعلم عن

الخلافات المذهبية بين الكنيسة الشرقية والغربية، أو بين الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس، وعن الحرب الدامية التي ساقوا إليها الأباطرة والحكام، وكانت مثلًا للوحشية والتعصب والدمار! ومن منا لا يعرف الكثير من موقف رجال الكنيسة من حرية الفكر وحرية العقلية الناهضة في أوربا، وخاصة فيما يتعلق بالكون وسننه والكشف عن القوانين الطبيعية المختلفة الخاصة بدوران الارض، والجاذبية وحركة النجوم، وفسيولوجيا الإنسان.. إلخ!

لقد وقفت الكنيسة من هذه الكشوفات العلمية موقفًا عنيدًا، كان للكنيسة تفسيرها الخاص، ونظرياتها الجامدة التي ما أنزل الله بها من سلطان. وكان علماء النهضة بتجاربهم ومشاهداتهم ودراساتهم قادرين على دحض نظريات الكنيسة وتأويلاتها التعسفية، فوقع الصراع بين الفكر الحر الناهض المدعم بالدليل والبرهان، وبين الفكر الكنسي الجامد الذي افتعله رجال الدين، في القديم، وتشبثوا به، ظنًا منهم أن التنازل عنه إنما هو ضياع لهيبة الكنيسة، وانحسار لهيبة الدين وسلطانه، وزعزعة لعقائده. فأصبحت المعركة معركة حياة أو موت، ومن ثم كانت المحاكمات القاسية ذات الطابع الديني لرجال الفكر والعلم، وكان الحكم بالموت حرقًا أو قتلًا، وكان السجن لوأد الملكات

الإنسانية، وثمرة الفكر الإنساني الحر المنطلق من قيود العنف والقهر والتفسيرات الزائفة التي لا يسندها منطق قوي، أو دليل أكيد..

ويمرور الزمن انتصرت الحقائق الباهرة، وتوارى الزيف والعسف، لكن ضرورة الدين، ودوره الحاسم في الحياة جعل طائفة من المفكرين يدعون إلى فصل الدين عن الدولة.. عن العلم.. عن الحياة المادية، وجعله علاقة محدودة في بعض الطقوس بين العبد وربه.

إذن، كان لهذه الدعوة في أوربا، وفي ظل المفاهيم الكنسية، والظروف التاريخية.. كان لهذه الدعوة في فصل الدين عن الدولة ما يبررها..

أما العالم الإسلامي، في ظل القيم الإسلامية الواعية الأصيلة، فإنه لم يقع في مثل هذه الورطات. كان علماء الطب والفلك والرياضة والطبيعيات والكيمياء والزراعة وغيرها، يفكرون في حرية، ويعبرون عن فكرهم دون قيود أو تعسف. كان ابن الهيثم يقدم نظرياته في «البصريات» فتنال التقدير والإعجاب، والرازي وابن سينا يتحدثون عن الحصبة والجدري وأمراض الكلى والملاريا، ويقدمون المجلدات الضخمة التي ما تزال بين أيدينا دون أن يتهمهم أحد بالكفر أو المروق، وابن

النفيس يقدم اكتشافه عن الدورة الدموية (قبل هارفي بمئات السنين)، فلا يرميه أحد بالفسوق، والشاعر ابن الخيام يسجل كشوفه عن التوقيت الشمسي، ونظريات في الفلك، فيمده الحكم بما يحتاج من أدوات وأموال، ويقوم المترجمون بترجمة الكثير من ثمار الفكر الإغريقي والروماني والفارسي، فينالون المكافآت من ذوي السلطان، وينالون التقدير من علماء الدين، وابن خلدون، يتكلم عن «المجتمع» وحركة التاريخ ويفتح آفاقًا جديدة للفكر الإنساني، فيحظى بالتكريم. ولم يكن هناك في العالم الإسلامي سوى بعض الخلافات البسيطة المتعلقة بالتوحيد: هل القرآن مخلوق أم لا؟ صفات الله.. إلخ، وكانت مثل هذه الخلافات محصورة وبسيطة، أنعشت الفكر وأثرته، ولم تقف عقبة في طريقه. كما كان هناك بعض الخلافات السياسية التي لبست ثوب النظريات في بعض الأحيان، وكان كل فريق يستمد أدلته ومستنداته -إن حقًّا أو تعسفًا- من مبادئ الدين، واجتهادات العلماء. وهذه هي الأخرى بقدر ما أثارت بعض الفتن، قدمت الكثير من الانفتاح الفكري، والجهد الإنساني الذي لا يغفل.. تلك هي قصة فصل الدين عن الدولة في أوربا وما لابسها من موقف الكنيسة من رجال الفكر، وموقفها من استغلال الدين والدهماء لابتزاز الأموال، وتطويع الشعب والحكومة لخدمة مصالحها ونزواتها، مما نجا منه عالمنا الإسلامي، ولم يقع، بحمد

الله، في هوته السحيقة المظلمة. إن شعار فصل الدين عن الدولة شعار أوربي، وبضاعة محلية لهم، ولا سوق لها في بلادنا، ولا حاجة لنا فيها.

تلك هي النقطة الأولى، ولعلها أهم النقاط وأخطرها. أما السبب الثاني الذي من أجله انطلق شعار فصل الدين عن الدولة، فهو حقد صليبي قديم، يغذيه التعصب والخوف، والخوف كيف؟ إن النزعة الصليبية لم تزل متغلغلة في قلوب الغربيين عامة، والمبشرين وبعض المستشرقين المنحرفين خاصة.

لأن قيام الإسلام، وانتشاره في فترة قصيرة من الزمن، وتصديه لأكبر امبراطوريتين في العالم آنذاك، وهما الفرس والرومان، ثم امتداده حتى الصين وساحل المحيط شرقًا، وانطلاقه حتى فرنسا وانجلترا غربًا، وسقوط الأندلس في قبضة الزحف الإسلامي، وعبور الأتراك إلى أوربا الشرقية وقيام حضارة ضخمة واعية تقدمية، لها كل مقومات التفوق العقيدي والعلمي والمادي، وسيطرتها على مقدرات العالم قرونًا عدة.. كل ذلك قد أوغر صدر الكنيسة-في ذلك الحين-، تلك التي حشت قلوب رعاياها بالحقد والتعصب. وكانت الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمان نتيجة لذلك التعصب، وهذا التحريض. وكانت هزيمة الجيوش الصليبية الجرارة

والقضاء على أحلام الكنيسة، وفجيعة النزعة الاستعمارية الوليدة في آمالها، كل ذلك جعل الحقد الصليبي يفرخ ويزيد، ذلك الحقد الذي جمع أوربا كي تقضي على الخلافة العثمانية في تركيا، والذي عبر عنه اللورد «اللنبي» حينما احتل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى، ووقف على قبر صلاح الدين قائلًا: «الآن انتهت الحروب الصليبية». إن الحروب الصليبية لم تنته في يوم من الأيام، وإنما كانت تتخذ أشكالًا وأردية مختلفة، فلما فشلت الجيوش والسلاح في القضاء على الإسلام في نفوس أهله وعقولهم وتراثهم، لجأ الجبناء إلى الحروب الصليبية الفكرية، واستغل الغرب تفوقه الحضاري، والإعجاب بنهضته في جر السذج والجهلاء، الذين لم يتعمقوا تراثهم وفكرهم، إلى شباك فكره، وإيهامهم بأن الدين معوق للنمو الحضاري والتفوق الإنساني، وان الدين علاقة بسيطة بين الفرد وربه، وإنه لا علاقة له بالدولة أو الاقتصاد أو السياسة. وردد المخدوعون كلمات الفكر الصليبي. كالببغاوات، وبحماس لا يقل عن حماس فلاسفة المبشرين.

وهكذا انتقلت بضاعة أوربا إلينا، وساعد على ذلك ما كان يرزح تحته المسلمون من فقر وجهل وتخلف وانحراف عن الدين الصحيح، وما نكبوا به من حكام ظالمين، يوارون أخطاءهم وسوءاتهم ومظالمهم تحت ستار الدين.

والسبب الثالث، هو موقف علماء الدين الإسلامى. لقد جمد هؤلاء على النصوص الجوفاء، وأصبح اهتمامهم بنواقض الوضوء أكثر بكثير من اهتمامهم بحدود الحاكم، وسيره على الجادة، وانصياعه لأوامر الله، وأكثر بكثير من اهتمامهم بمشاكل المسلمين الاقتصادية ونظام المال، وأكثر بكثير من التربية الصحيحة للنشء، وفتح الآفاق أمام الفكر الإسلامي الإنساني والعلمي كي يمضي في تفوقه وتطوره وجهاده. واستطاع الحكام الظالمون والاستعمار الخبيث أن يعزلا علماء الدين عن جماهيرهم، وأن يجعلا منهم مجرد بطانة للسلطة والسلطان، ويغدقان عليهم من الأموال والمناصب تارة، ومن التهديد والتخويف تارة أخرى، مما يجعلهم يتقوقعون، وينشدون السلامة، وأفقداهم الوقار والاحترام اللذين كانا رداء العلماء، وأضاعا عنهم الثقة التي بها عاشوا وكافحوا، ورفعوا أصواتهم بكلمة الحق. وأصبح من الناحية العملية فصل الدين عن الدولة أمرًا واقعًا لم يعبر عنه العلماء بكلماتهم وكتاباتهم، وإن عبروا عنه بسلوكهم وتراخيهم، وانعزالهم عن قضايا العصر، والجماهير المتسائلة..

لهذه الأسباب ولغيرها تخلف علماء الدين عن الركب، وأسلموا القيادة لطائفة من المفكرين والسياسة الذين تغذوا

بلبان الغرب وفلسفاته، ورضخوا لتأثيره ومؤامراته، فانطلقت الشعارات المستوردة تزين صدور الصحف، وتملأ الكتب، وترن في قاعات المحاضرات، كي تعمل عملها في قتل الروح الإسلامية، وتمزيق التكامل الإسلامي وعزل الدين في متاحف التاريخ والاتهام..

بقيت كلمة أخيرة لابد منها، وأعني بها السبب الرابع لسيادة هذا الشعار الذي ينادي بفصل الدين عن الدولة.

لقد أسلفنا القول بأن بعض المذاهب السياسية في التاريخ الإسلامي، قد أصابها الشطط والمغالاة، وأمعنت في الأغراب والشذوذ، وجرت المسلمين إلى بعض الحروب. وبعض هذه المذاهب أدى خدمات جليلة للفكر الديني والسياسي، بلا شك، وبعضها أساء إلى الدين إساءات بالغة، ونستطيع أن نقرأ الكثير عن ذلك في الكتب المتخصصة، كالملل والنحل للشهرستاني، وكتب الخوارج - بطوائفها المختلفة - والباطنيين والفاطميين والقرامطة والحشاشين والقاديانيين بالإضافة إلى بعض الكتب التي صدرت في عهد العباسيين وغيرهم.. ولقد اتخذت هذه الخلافات سندًا للمغرضين ومبشري الغرب ومستشرقيه المنحرفين..

غير أن الذي يعني في هذا المجال، هو الحركات الإسلامية الحديثة التي لعبت أدوارًا ذات أثر بالغ في تاريخنا المعاصر. كان الدافع لهذه الحركات هو إحياء النزعة الدينية، واستعادة مجد الإسلام وشرائعه، وتحدي الهجمات الصليبية الفكرية والعسكرية والسياسية، وجر حكام المسلمين رغبة أو رهبة إلى الطريق الصحيح، طريق الكتاب والسنة، مع الأخذ بوسائل الحياة الحديثة في مجالات التكنولوجيا وعلوم الطبيعة والفيزياء والاقتصاد وغيرها، في ظل قيم إسلامية أصيلة لها حق الأخذ والعطاء، دون طمس لشخصيتها ومبادئها.

وكانت هذه الجماعات أو الحركات الإسلامية تؤدي دورها في ظل ظروف قاسية غاية القسوة، كان عليها أن تقاوم الحكم المتعنت حتى تجد حرية التعبير، وإرادة التغيير، وكان عليها أن تتصادم مع الاستعمار صاحب المصالح، وممثل النزعة الصليبية، وكان عليها أن تواجه أخبث أدوات الفكر والإعلام التي تديرها عقول مدربة خبيرة، وكان عليها أن تقاوم واقعًا مرًا أليمًا يرتع في أنحاء العالم الإسلامي، مثل نظام للمال أوربي التقنين، ومنهج للسياسة غربي الصنعة، وتعليم يستمد أصوله من الفكر الغربي، وتقاليد لا هي بالأوربية ولا هي بالإسلامية.. عادات وافدة في الطعام والشراب والملبس والمنتديات.. وتيارات متضاربة في الفن بشتى فروعه وألوانه...

أجل.. كان الواقع ينوء بالكثير من الخطايا والانحرافات والأفكار والعادات في كل اتجاه. هل كانت المهمة إذن مهمة سهلة؟

كان على الحركات الإسلامية الحديثة أن تقدم فكرها بلغة العصر.

وكان عليها أن «تقدم البديل» الذي يقوم على أنقاض البناء الذي يراد هدمه..

وكان عليها أن تكتسب رضى الوالغين في الانحراف والزيف من جماهير المسلمين، وتمنع عنهم الخوف والرعب.

وكان عليها أن تقوم بالتقنين والتشريع.

وكان عليها أن تهدم أثر الفكر المضاد، وهو يبدو كقلعة حصينة مستعصية على الاقتحام والتدمير.

ولم يكن غريبًا -برغم كل هذا- أن تنال هذه الحركات الإسلامية الحديثة، تأييدًا عريضًا بين جماهير العمال والفلاحين والطلبة، وعدد غير قليل من علماء الدين. ولعل الأسباب الرئيسية لهذا التأييد الشعبي هي أن هذه الجماهير بطبيعتها لم يداخل فكرها الانحراف الفكري، ولم تمزقها التيارات الفلسفية المغرضة، كانت على فطرتها تعتز بالدين وقداسته ومثله، كما أن

هذه الجماهير لم تكن مصالحها تصطدم بالدين، بل إنه كان مبشرًا بخلاصها من الظلم السياسي والاجتماعي في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة. ولم تكن هذه الجماهير قد ولغت في مفاتن الغرب وتقاليده، ولم تكن قد استوردت لحياتها وقيمها أنماطًا جديدة من المدنية الغربية، وكانت هذه الجماهير بطبيعتها تكره حكم الاستعمار وعملاء الاستعمار، ولم تستسلم في يوم من الأيام لإرادة المستعمر «الكافر» ولا لأذنابه «المتفرنجين»، إن صح التعبير.

ومع هذا التأييد الضخم، وبرغم إيماني بقوة الجماهير ودورها الحاسم في تكييف أحداث التاريخ، إلا أن هذه الجماهير كانت خفيفة الوزن إذا ما وزنت بالقوة الاستعمارية والقوة العسكرية المحلية، وجيش الفكر الزائف الذي يمثل الإلحاد والنفعية والدعارة الاجتماعية. لا أريد أن أطيل الحديث في هذا الجانب، وإنما الذي يعنيني هو أن الحركات الإسلامية الحديثة تصدت لها أكثر من قوة، وضربتها في الصميم دون هوادة، ولم تكن القوى المضادة بقادرة على تصفية الحركة الإسلامية أو تخضيد شوكتها إلا بالعنف البالغ، وواكب ذلك العنف حملة إعلامية بل حملات خبيثة، حاولت تصوير الحركات الإسلامية بالرجعية تارة، والخيانة تارة أخرى، والغوغائية والجهل، ومحاولة تصويرها بأنها

عدو للتراث الإنساني الحضاري، ومعول هدم للفنون والفكر.. بل وانحراف بالدين الصحيح عن مقاصده. ووجدت القوى المضادة للحركة الإسلامية بعض الحاقدين والطامعين من رجال الدين، فجندتهم لضرب الحركة الإسلامية بنفس أسلوبها، بحجة أن الدين ليس احتكارًا لأحد، بل بحجة أنهم هم الحماة الرسميون للدين، وصدرت الفتاوى الغامضة، والمقالات الطنانة في هذا السبيل.

ولم تقف الحركة الصليبية، أو الفلسفة المادية، أو الفكر المستورد المنحرف.. كلها لم تقف إزاء هذه الأحداث موقف المتفرج، بل حاولت أن تعيد النظر في أمر الدين ككل، وعادت لتردد شعارات فصل الدين عن الدولة، مستغلة ما يجري على أرض الواقع، بل وتمادى بعضها، وأعلن شعارات الماركسية دون مواربة، وهكذا صودرت كلمات الفكر الإسلامي أو سجنت أو شردت.

تلك هي الأسباب التي أراها تآزرت وفعلت فعلها في إبراز هذا الشعار الذي لم يكن له وجود في عصور الإسلام الأولى، وهو شعار فصل الدين عن الدولة.. وعلى الرغم من أن المشكلة -كما قلت- لم يكن لها وجود في تاريخنا الإسلامي، ولا في قاموسه السياسي، إلا إنني أراني مضطرًا لإلقاء الضوء على الحياة

الإسلامية الأولى مركزًا على الجانب السياسي فيها دون غيره، حتى يكون الأمر أكثر وضوحًا وشمولًا، فيما يدبر ضد فكرنا وتاريخنا من مؤامرات، وحتى ندرك الخطأ الجسيم، بل العصيان الواضح لمبادئ ديننا القويم، ثم نرفع عقيرتنا وأقلامنا الحرة المؤمنة في مواجهة أعداء الحركة الإسلامية، والكائدين لها..

ماذا كان يملك النبي ﷺ:

حينما بعث الله محمدًا ﷺ، لم يكن نبينا الكريم يملك غير الكلمة التي أنزلها الله عليه، وبهذه الكلمة خرج إلى الناس، ولم تكن سوى كلمة التوحيد، أخذ يدعو الناس إليها سرًّا ثم علانية، وهذه الكلمة برغم بساطتها كانت تنطوي على حدث كبير، فطن له حكام مكة ورجالاتها: إن تسفيه آلهتهم معناه تسفيه الأسس التي يقام عليها بنيانهم الاجتماعي والسياسي والأخلاقي. إن وجود حقيقة أخرى تخالف الحقيقة التي يؤمنون بها -إن صح التعبير- معناه أفول نجمهم، وانهيار مجدهم الأدبي والمادي.. ومن ثم طاردوا كلمات النبي المرسل، وتنوعت هذه المطاردة، من سخرية.. إلى تكذيب.. إلى رميه بالسحر والكهانة والجنون والمروق. ثم لما لم تنجح هذه الوسائل في مواجهة الدعوة الإلهية، حاصروه، وعذبوا أنصاره، وقتلوهم، ودبروا

لقتله، وبذلك أصبحت الحرية في مكة مهدورة، وكان لابد أن تكون للدعوة حرية التعبير، وهذا حق إنساني، احتكره أولو المال والسلطان في مكة، فهاجر الرسول إلى يثرب ومعه عدد من أنصاره، فأصبح للمسلمين مجتمع خاص بهم، وأصبح لهذا المجتمع سمات وأخلاقيات وقضايا متنوعة، وأصبح لهذا المجتمع المسلم جيران هم اليهود والقبائل، وكان أن عقدت الاتفاقات بين المسلمين وجيرانهم، وهو ما يمكن أن يسمى: «تنظيم العلاقات الخارجية» إلى جانب العلاقات الداخلية في إطار المجتمع الإسلامي الجديد، وقامت معارك حربية لا داعي لشرح ظروفها وأسبابها وأهدافها الآن، وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن محمدًا ﷺ أقام أول حكومة في تاريخ الإسلام، حكومة كاملة بما تحتاج إليه من شرائع، ونظم وآداب وجيش وعدة ومال، وعلاقات داخلية وخارجية، وهذه الحكومة تتلقى أوامر الوحي الإلهي النازل على محمد ﷺ، في شتى الشئون السياسية والعسكرية والاجتماعية والتعبدية، في الميراث والزواج والقضايا والقضايا المدينة والجنائية، وما لم ينزل به وحي، كان مآله إلى الشورى وتبادل الرأي بين النبي وأصحابه، وعامة المسلمين وخاصتهم، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لسردها، وكذلك النصوص القرآنية وأحاديث الرسول وسيرته...

كان المسلمون الأوائل يرون الصلاة والصوم والزكاة والحرب وقانونها، والأسرى والغنائم وطريقة التعامل إزاءها، ومعاقبة الجاني إن سرق أو قتل أو زنى، ومحاسبة المستغل، والمعاملة مع الجيران والمتعاهدين.. كل هذا نسيج واحد محكم متلاحم، ابتداء من الشعائر الفردية، إلى القضايا الاجتماعية، إلى السياسة الخارجية.. كل هذا النسيج هو الدين.. أو الإسلام...

إن جزءًا من هذا نسميه بلغة عصرنا «السياسة».. أو نظام الدولة، والحاقدون يريدون أن يمزقوا هذا النسيج، فيفصلوا بين الدين والدولة، ويبتدعوا منها أمورًا لم يكن لها وجود في مبادئ ديننا الحنيف..

حول خطاب أبي بكر:

إن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاض حربًا مريرة ضد مانعي الزكاة، وقرر أنه مستمر في الحرب، حتى لو منعوه «عقال بعير» كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ..

ونمت الحكومة وتطورت في عصر الرسول حتى امتدت إلى مكة وغيرها من بلاد العرب، وأرسل محمد الرسل إلى حكام ذلك الزمان في فارس الروم واليمن والحبشة وغيرها يدعوهم إلى الإسلام.

ولما مات رسول الله ﷺ، كانت المشكلة الخطيرة التي تشغل أذهان المسلمين هي الحاكم الذي يخلف الرسول، ولا داعي هنا للاستطراد، وإنما أقول بوضوح يدعمه البرهان والتاريخ إن أبا بكر اختير خليفة في ظل استفتاء شعبي حر عاصف، في «سقيفة بني ساعدة»، وامتدت الأيدي تبايعه طواعيه لميزات ومواصفات خاصة رأوها فيه، واعتبارات دينية رسخت في عقولهم وسلوكهم، وتربوا عليها مع رسول الله ﷺ.. وفي ظل القاعدة العريضة للشورى والحرية. ويدلي أبو بكر ببيانه الأول قائلًا:

«... لقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وأن رأيتموني على باطل فسددوني. الصدق أمانة، والكذب خيانة.. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له.. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم...».

ومن خلال هذه الكلمات الواضحة الصريحة البسيطة تتضح معالم الطريق العظيم الذي يسير أبو بكر بالمسلمين فيه إلى عالم الحق والخير والفضيلة، عالم الحرية والإخاء والتقدم، لا عالم الرجعية والجشع والكبت والاستغلال.

ولنا تعليقات مقتضبة على بعض فقرات هذه الخطبة القصيرة:

1- يقر الحكم الجديد بأنه ليس أمير المسلمين، وليس هذه مجرد تواضع نابع من انفعال مؤقت، وإنما يرمي أبو بكر إلى أبعد من ذلك، إنه مجرد فرد منهم، وقد لا يكون أفضلهم، ومن ثم فهو مجرد بشر ليس «معصومًا» من الخطأ، وليس ظلًا إلهيًا على الأرض، أو شخصية مقدسة لا ترد إليها كلمة أو يخالف لها رأي.

2- والحاكم الجديد يطلب تأييد الأمة المطلق فيما يرونه حقًّا (لا ما يراه هو) بل ويفرض عليهم نقده ومراجعته وتقويمه إن رأوا أنه على باطل، هذه أحكام منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، وفي عصرنا الحديث نرى النقد في بعض المجتمعات جريمة، وخيانة قد تودي بحياة صاحبها، أو تقطع رزقه، أو تشرد أسرته أو تحرمه حق المواطن...

3- ويقرر الحاكم المسلم أن الخيانة هي الكذب، وان الأمانة هي الصدق، فالنقد أو الرأي الحر أو التوجيه يجب أن يكون مبرأ من النفاق والمداهنة والرياء، والتأييد الصحيح للتصرف السياسي السليم يجب أن يكون خاليًا من شبهة المنفعة والمجاملة. ومثل هذه الخطوط الفكرية لم تتولد من بنات أفكار

أبي بكر صدفة، وإنما هي وليدة الحياة الإسلامية وما بها من سلوك عملي، ومبادئ باهرة منذ رافق محمدًا ﷺ.

4- يؤكد أبو بكر للجميع، أن قوة القوي لن تمنعه من أخذ الحق منه، وضعف الضعيف لن يكون مدعاة لغبنه وظلمه، فالناس سواسية، والعدل للجميع دون محاباة أو تفرقة، لا دكتاتورية لحاكم أو قريب أو قوي، ولا دكتاتورية لطبقة كثر عددها أو قل، قويت شوكتها أو ضعفت.. إن شعار «الأخوة» هو الفلسفة التي تربط هذا البناء، أخوة الحاكم للمحكوم، وأخوة القوى للضعيف، وأخوة الغني للفقير، وأخوة السيد والخادم، ولم تكن هذه الفلسفة كلمات مجردة عند التطبيق، ولكنها كانت واقعًا عاشه المسلمون في ظل الإسلام الحنيف.

5- ثم يضع الضمان الأكبر والشعار العظيم الذي لا يكاد يصدقه عقل، يقول أبو بكر:

«أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»، وطاعة الله هي الالتزام بأوامره ونواهيه، وتنفيذ أحكامه وشرائعه، وتأدية فرائضه ومناسكه.. طاعة الله إذن هي الاستقامة، والعدل بين الناس، وقطع دابر الظلم والاستغلال والرذائل. هي سيادة القانون الإلهي، فإن خرج الحاكم عن ذلك وجبت معصيته، ووجب عزله.

تلك صورة من صور الإسلام في المجال السياسي، لم تكن هذه الصورة وليدة عبقرية رجل كأبي بكر، وإنما هي ثمرة الدعوة الإسلامية، وتعبير عنها في هذا المجال، ولو فرض وجاء رجل على غير غرار أبي بكر، لنبذه ذلك المجتمع ولرفضه بشدة، فأبو بكر ابن بار للثقافة الجديدة والفكر الجديد، والسلوك الإسلامي الفريد، ولن يقبل مثل هذا المجتمع المسلم العظيم نشازًا، يطمس القيم التي بذر محمد بذورها بين جنود دعوته.

والحق يقال، أن أبا بكر كان عند وعده، وكان عند حسن ظن المسلمين به، فأدى الأمانة، أمانة الحكم، وبلغ الرسالة.. رسالة الإسلام خارج الجزيرة، وحمى الدين ووحدته ووحدة أهله من الفتنة والغيرة والفساد.

أنا لا أقول قارنوا بين الأمس واليوم، فإن الفرق شاسع ومخيف ومحزن، ولكني أقول أية ضمانات قانونية توجد في أي قانون على سطح الأرض تماثل هذه الضمانات؟

أنا لا أريد أن نمضي مع أغوار الحديث الشجي عن مجدنا الزاهر القديم، ولا أرى أن الظروف تسمح بأن أمضي مع الحكومة الإسلامية في عهد عمر وعثمان وعلي، والأمويين والعباسيين، وإنما أريد أن ألفت النظر إلى نقطة مهمة.

إن الحكومة الإسلامية التي قامت في ظل أسر معينة، أو مذهبية بعينها، كل هذه الحكومات لم تكن لتفصل الدين عن الدولة، ولم يجرؤ أحد أن يصرح بذلك، بل لم يفكر فيه مفكر. كانت تلك الحكومات قائمة على أساس ديني معين، تمذهبت به، أو تشيعت له، فمنهم من تشيع لأهل البيت، ومنهم من اختار فردًا بعينه، وأخلص لذريته متخذًا من الأدلة الضعيفة، والنصوص المخترعة، سندًا له، وأنا لا أناقش صدق هذه الأدلة أو كذبها، وإنما الذي يهمني الآن هو أن كل هذه الحكومات والمذاهب والحركات قامت على أساس ديني، ولم يدر بخيال أحدهم في يوم من الأيام فصل الدين عن الدولة..

بل إن بعض المفكرين من المسلمين وضعوا أحكامًا وشروطًا للحاكم المسلم تفصيلًا، ونصوا على الحالات التي تجب فيها معصيته، ومحاربته حتى يتم عزله أو عقابه، فعل ذلك بعض الخوارج، والعديد من مفكري الإسلام وفقهائه. ونظرة في مؤلفات ابن تيمية وخاصة كتابه «السياسة الشرعية»، ومؤلفات الغزالي وابن حزم، وأبي حنيفة والشافعي، والذين تناولوا بالتشريع والتقنين المال والأحوال الشخصية والعلاقات الدولية وما إلى ذلك، وما تغص به الكتب العديدة.. تكفي لتأكيد ذلك.

ولم يكن الحاكم -تاريخيًا وعقائديًا- من وطن معين، أو قبيلة بعينها، وإنما كانت الخلافة تنتقل من الأمويين إلى العباسيين، من دمشق إلى بغداد، ومن بغداد إلى القاهرة، ومن القاهرة إلى استامبول. فالمسلم أخو المسلم دون تفرقة من لون أو جنس أو أرض.

وكلمة أخيرة قصيرة أريد أن أقولها:

إن علماء المسلمين لم يقعوا فريسة هذا الزعم الخاص بفصل الدين عن الدولة، بل لم يؤخذ هذا الافتراض الخاطئ مأخذ الجد إلا في عصرنا الحديث. ولقد كانت سيطرة الدين أو الشعور الديني على حركات التحرير الحديثة في العالم الإسلامي، من مظاهر الرفض الأصيل لنزعات الزيغ والإلحاد والتشويه...

في مصر حمل علماء الأزهر، وطلبة العلم فيه، راية النضال ضد الغزو الفرنسي، ومن خلفهم جماهير الشعب المؤمن. وثورة عرابي ونصوص خطبائها وزعمائها وصلة العلماء بها، تؤكد نفس الحقيقة. ولما اندلعت ثورة 1919، كان مشعلوها ورائدها رجال يؤمنون بدينهم وأمتهم، وإن استغلها المغرضون والمارقون.

وثورة الجيش الإسلامي في الهند، وتضحيات العلماء في الجزائر والمغرب، وصيحات الأفغاني والكواكبي ومحمد عبده،

وتصدرهم لقيادة جماهيرهم المؤمنة التي أولتهم ثقتها.. إلخ.. كلها حركات تحريرية، ترتبط بالتغيير، ونظافة الحكم، والتحرر من العسف والطغيان والمروق.

إن الذين يحاولون أن يزيفوا التاريخ، ويطمسوا حقائقه الغالية، والذين يتجاهلون الواقع، وينسجون شباك التضليل لشعوبهم، إنما يجرون أنفسهم وأمتهم إلى الدمار والوبال.

ولا أسوق هذا الكلام اعتباطًا، وإنما أصرخ به والتجارب المريرة، والضياع الأليم والنتائج المخزية التي نجنيها، إنما تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك صدق ما أقول...

وأخيرًا أجد أنه من الضروري أن نسجل بضع كلمات موجزة عن نظرية الحكم في الإسلام...

دعائم النظام الإسلامي:

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه «نظام الحياة في الإسلام»: التوحيد، والرسالة والخلافة هي دعائم ثلاث يقوم عليها بناء نظام الإسلام السياسي.

فالتوحيد معناه أن الله تعالى هو الخالق لهذا العالم ومن فيه من بني آدم، فهو ربهم ومالكهم، وليس الحكم والسلطان والأمر والنهي إلا له وحده، وهو مستأثر بالطاعة والعبودية ولا يشاركه

فيها أحد سواه.. هذا هو التوحيد، وهو ينفي -كما ترى من شأنه- حاكمية البشر ويريد القضاء عليها قضاء مبرمًا، سواء أكانت هذه الحاكمية لفرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات، أو بيت من البيوتات، أو أمة من الأمم. الحاكمية لا يستحقها إلا الله وحده عز وجل، فلا حاكم إلا الله، ولا حكم إلا حكمه، ولا قانون إلا قانونه.

أما الرسالة، فهي الوسيلة التي يصل بها إلينا القانون الإلهي.. الكتاب والسنة، ومجموع هذه الأصلين يسمى في المصطلح الإسلامي «بالشريعة» فهذا من الدستور الأساسي الذي ينهض عليه صرح الأمة الإسلامية.

أما الخلافة فهي في لغة العرب تطلق على «النيابة»، فمنزلة الإنسان في هذا الكون، من الوجهة الإسلامية، أنه خليفة الله، أي نائب عنه في مملكته، لا ينصرف فيها إلا طبقًا لحق الاستخلاف والتصرف الذي وهبه الله إياه... إن الإسلام لا ينوط أمر هذه الخلافة بفرد من الأفراد، أو بيت من البيوتات، أو طبقة من الطبقات، بل يفوض أمرها إلى جميع أفراد المجتمع الذي يؤمن بالمبادئ الأساسية من التوحيد والرسالة ويظهر كفاءته واستعداده، للقيام بكل ما تنطوي عليه كلمة «الخلافة» وتقتضيه، فإذا وجد في الدنيا مجتمع يتصف بهذه الصفات فلا

ريب أنه جدير بالخلافة، وإن هذا هو المقام الذي تنشأ فيه، وتبتدئ منه فكرة الجمهورية في الإسلام، فكل واحد من أفراد المجتمع الإسلامي له نصيب من الخلافة وحق في التمتع بها...

إن نظرية الغرب السياسية تقول بحاكمية الجمهور، والإسلام يقول بخلافة الجمهور، والإسلام يقول بخلافة الجمهور.

إن حقوق الحكم والأمر في الجمهورية الغربية يستبد بها الجمهور، وهم الذين يمتلكون ناصيتها، فيسنون وينفذون في الأرض ما يشاؤون من القوانين والشرائع، وإن قصارى ما تهدف إليه حكوماتهم، إنما هو إرضاء عامة السكان (الدولة) وجلب تأييدهم، وقضاء مشيئتهم.

والإسلام بخلاف ذلك، ليس الحكم والأمر فيه إلا الله وحده. فهو الذي يستأثر بحق وضع القانون والشريعة لعباده من غير مشارك ولا منازع، أمام الجمهور فليست منزلتهم في الإسلام كمنزلة الخلفاء الذين يضطرون بطبيعة منزلتهم أن يقتفوا آثار الشريعة الإلهية، التي جاء بها الرسول من عند ربهم، ولا يحيدوا عنها قيد شعره...».

إن توحيد الله والعبودية له وحده، هي أساس ديننا، والعبودية لله وحده، إنما هي في حقيقتها تحطيم لكل ألوان

الشرك، والأوثان الزائفة، وأعني بها عدم الخضوع للسلطة الظالمة مهما كان جبروتها، وعدم الخضوع لسلطان المال مهما كان إغراؤه، وعدم الاستسلام لمقدرات الشهوة مهما تعاظم أثرها. فالتوحيد خلاص من كل ألوان الشرك، وتحرر من كل القيوم التي تغل طاقة الإنسان الجبارة.

والرسالة هي القانون الذي ارتضاه الله لعبادة المؤمنين، والإيمان بها جزء لا يتجزأ من عقيدتنا، وصدق الله العظيم إذ يقول لنبيه الكريم في محكم آياته:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية:18].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة:49].

أما الخلافة، فالدور الذي ناطه الله بالمؤمنين، إذا استخلفهم في الأرض، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة:30]، واستخلفهم في المال ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾ [الحديد:7]، وحملهم أمانة الدعوة والعمل لها، والعيش لها،

والجهاد في سبيلها حتى تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى...

وإذا عدنا إلى حياة الرسول العظيم، وخلفائه من بعده، لوجدنا أن سلوكهم وفعلهم وقولهم، إنما كانت ترجمة عملية للعقيدة السمحاء التي أكرمنا الله بها:

إن واجبنا أن نقف وقفة رشيدة أمام الأحداث الجسام التي تعصف بأمتنا، وقفة متأنية يكون بعدها الاختبار، أما أن نكون لله أو نكون لهوى الحياة الجارف.

فإن اخترنا الأولى، واعتقد أننا جميعًا على عهدنا لله ولرسوله، فلنقف موقف المسلم الحق إزاء تيارات الزيغ والانحراف التي تبغي الإضرار بنا وبديننا وبمستقبل أجيالنا، وروعة حضارتنا وتراثنا...

ولنردد معًا قول شاعر الإسلام العظيم «إقبال» هذه الأبيات:

بلغـــت نهايـــة كـــل أرض خيلنـــا
وكـــأن أبحرهـــا رمـــال البيـــد

في محفـــل الأكـــوان كـــان هلالنـــا
بالنـــصر أوضـــح مـــن هـــلال العيـــد

في كـــل موقعـــة رفعنـــا رايـــة
للمجـــد تعلـــن آيـــة التوحيـــد
أمـــم البرايـــا لم تكـــن مـــن قبلنـــا
إلا عبيـــدًا في إســـار عبيـــد
بلغـــت بنـــا الأجيـــال حرياتهـــا
مـــن بعـــد أصـــفاد وذل قيـــود

***

حول الفن الإسلامي



«الفنون والآداب قد تكون نوعًا من الخمر أو المخدر، وقد تكون غذاءً شهيًا.. ونبعًا صافيًا طاهرًا».

الحركة الإسلامية في حاجة إلى المزيد من الوعي والتكامل... وأعني بالوعي الجهد المستمر الدائب في مجال الفهم والإثراء الفكري. والاستفادة من التجارب المريرة التي خاضتها وتخوضها، وقد يقول قائل هذا أمر مفروغ منه، أو تحصيل حاصل. وإنما الحقيقة التي لا مراء فيها، أن رجال الدعوة الإسلامية قد استدرجوا إلى معارك جانبية، وخلافات شخصية، استنفدت الكثير من جهدهم، وأضاعت الكثير من وقتهم، وجرفتهم عن التفكير الهادئ، والانفعال المتزن.

وأعني بالتكامل، التوسل بشتى الأساليب قديمها وحديثها للوصول إلى عباد الله، والاستفادة من تجارب العصر في المجالات النفسية والإعلامية والفنية.. فالدعاة إلى الإسلام في عصرنا لم يعطوا الفنون حقها في التأثير والتوجيه، ولم يكونوا

جادين في حمل عقيدتهم وكلماتهم على متن الفنون والآداب، ولعل كثيرين من الدعاة المسلمين قد ساء رأيهم في الفنون وأصحابها لما تنضح به الفنون المعاصرة من دعارة ومجون واستهتار وإثارة وضلال، ولعل اليأس قد أصاب البعض الآخر نظرًا لرواج هذه البضائع، وإقبال الجماهير الأرعن عليها، وجريه وراءها، والبعض الآخر رأى أن الفنون داء وبيل، وإنه لا نجاة من شرها إلا بالبعد عنها، ومقاطعتها، وفرض حصار على ذويه حتى لا يتلوثوا بهذا المورد الموبوء، ونسي أو تناسى أن هذه الألوان تطل عليه من النافذة، وتواجهه في الشارع والمكتب، وتتصدى له على صفحات المجلات والجرائد، وتواجه أبناءه في المدارس والجامعات، وفي الإذاعات والتليفزيون..

إن تكامل أدوات الدعوة الإسلامية في العصر الحديث لا يتم إلا بتطويع هذه الفنون والآداب، وتطهيرها في ينابيع القيم الإسلامية العريقة، وإعطائها ما تستحقه من الاهتمام والدراسة، والتوسل بها -في أطهر أحوالها- إلى جماهير الناس..

إن بضعة أمتار من الحرير تستطيع المرأة أن تصنع منها ثوبًا ضيقًا قصيرًا، يبرز مفاتنها ويجذب إليها العيون الفضولية، ويحيطها بجو من الإغراء والفساد...

وإن بضعة أمتار أخرى تستطيع امرأة ثانية أن تصنع منها ثوبًا محتشمًا، عليه سيماء الفضيلة والوقار..

والفنون والآداب قد تكون نوعًا من الخمر أو المخدر، وتنضح بالإثم والفجور والانحلال.. وقد تكون غذاء شهيًّا، ونبعًا صافيًّا طاهرًا، وباعثة للقيم الفاضلة، ومثيرة لما يكمن في قلب الإنسان وعقله من خير وبر وجهاد، ولسانًا معبرًا لأشرف الدعوات وأقدسها.. الفن ليس غاية كما يزعم عبدة الأصنام والحالمون.. الفن وسيلة لما هو أعظم، وأداة في يد الإنسان الحر الذي ينشد الخير للناس قاطبة..

ولقد أصبح الفن في عصرنا الحديث أقوى أدوات التأثير، وأشدها خطرًا، ولكي تتكامل وسائل الدعوة الإسلامية، وتلبي احتياجات العصر، وتتكلم مع ناسه بلغتهم، فلابد من الاهتمام بالفنون.. والفن ليس خبثًا كله.

وفي هذه الدراسة الموجزة نتكلم عن الفنون والآداب في ظل المفهوم الإسلامي، ونتعرض لصلة الدين بالفن، ودور الفن في العصور الإسلامية الأولى، وما تعرض له الأدب العربي أو الإسلامي من محاولات للهدم والتدمير..

ولتكن هذه الكلمات الموجزة شحذًا لهمم الفنانين والأدباء المسلمين كي يشاركوا في هذا الجهد، بالرأي وبالإنتاج، لعلنا

نستطيع أن نفتح الطريق أمام فن إسلامي أصيل.. والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والرشاد..

حول الفن الإسلامي:

عالمنا الحديث يُلزمنا بالتحديد، وأجياله يريدون خطوطًا واضحة المعالم، ميسورة الفهم، عميقة الإقناع، كي تتقبلها وتمشي على نهجها، أو تنفعل بها، وتتمثل مضامينها، ليس في مجال السياسة والاقتصاد والقانون والأوضاع الاجتماعية فحسب، بل في مجالات الفنون أيضًا..

والحركات الإسلامية على ما يبدو قد أهملت جانب الفنون في كثير من الأحيان، فالمتصفح لمجلاتها ونشراتها وصحفها وكتبها، يراها تركز على الجوانب العقائدية وحدها في مجال البحث والدراسة، وتشغل نفسها أكثر وأكثر بالرد على مناوئيها السياسيين، والمفكرين المنحرفين، وهذا في حد ذاته أمر لا غبار عليه، تفرضه ضروريات المعارك المتصلة بين الحركات الإسلامية وأعدائها، غير أن إغفال جانب الفن في أتون ذلك الصراع الأزلي، يجر إلى أضرار محققة، وخسائر أكيدة، إذ ليست الدراسات وحدها، أو البحوث المستفيضة وحدها، بقادرة على حمل لواء الدعوة، فإن أساليب الدعوة في عصرنا الحديث قد تنوعت وتعددت، وأصبح الوصول إلى المتلقي، أعني جماهير

الناس، فنًّا بذاته يحتاج إلى كثير من الخبرة والدراية، وإلا قصرت وسائلنا في الدعوة إلى الإسلام عن تأدية واجبها المقدس، وأصبح اللوم الأكبر يقع على عاتقنا نحن، ولا أقول اللوم فقط، بل والوزر أيضًا..

لقد أصبح الفن هو الحيز الأكبر في سياسة الإعلام، وأصبحت المذاهب الفكرية والسياسية تقدم نفسها إلى الناس في أثواب الفنون المختلفة.

وهذه حقيقة لم يجهلها أجدادنا الكرام، وهم يرفعون لواء الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها؟ كانت تواكب سلوكهم المميز، وأخلاقهم الفريدة، وكانت تسير جنبًا إلى جنب مع مهارتهم الحربية، وتفانيهم في الجهاد الأعظم وانطلاقهم إلى العالم في ظل العقائد والمثل التي يقرؤونها في كتاب الله، وحديث نبيهم وسيرته، فتشكل سلوكهم، وتصبغ كلماتهم بصبغتها. وقد يقول قائل: إذا كان أجدادنا الأوائل في فجر الدعوة الإسلامية، قد أدركوا هذه الحقيقة المهمة، فأين هو تراثهم من المسرح والرواية والرسم وغيرها من الفنون؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن ندرك، أن لكل عصر أسلوبه وفنه، ولو كان في عصر الرعيل الأول اختراعات كالتليفزيون أو السينما أو الإذاعة لما تردد المسلمون في استعمالها.

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يرحب بكل جديد نافع حتى في كافة الشئون: لم يتردد في حفر «الخندق» حينما أشار به سلمان الفارسي في غزوة الأحزاب، وهو شيء لم يفعله العرب من قبل، بل أضفى على سلمان الفارسي مجدًا عظيمًا حينما قال عنه «سلمان منا أهل البيت».. ولم يتوان ﷺ عن ابتكار أساليب جديدة في الحرب والسياسة، بل إن الدعوة الإسلامية كلها، كانت خروجًا عن كل القيم العفنة، والتقاليد الموروثة في حياة العرب، مما جعل طريق الدعاة وعر المسالك، مليئًا بالصعوبات والمشاق، محتاجًا لكل جديد في العرض والأسلوب.

وكان الأدب آنذاك هو فن العصر سواء الشعر أو النثر، كانت القصيدة أو الخطبة هي لسان الدعاة والمتحدثين، وكان شاعر القبيلة أو خطيبها هو أعلاهم ذكرًا، يحوطونه بالرعاية والإكبار، ويغدقون عليه المال والمتاع، ويقدمونه على كل من عداه في المحافل والمسامر، بل إن روائع القصائد كانت تعلق في أقدس مكان عرفه العرب، وهو الكعبة، وكانت كلمات الحكماء من العرب تحظى بقداسة لا مثيل لها.

وحينما جاء الإسلام لم يفرط في استخدام فنون العصر في بث دعوته، والرد على أعدائه، كان القرآن أول كل شيء قمة البيان، وفخر الفصاحة والبلاغة، معجزًا في شكله ومضمونه، معبرًا

أصدق تعبير وأحسنه عن المبادئ الإلهية التي بثها الله في كلماته، ولم يستطع العرب أن يتحدوا هذه الروعة الإلهية البيانية. انبهر أمامها الشعراء والفصحاء، وخروا ساجدين. لم يكن القرآن نثرًا، ولم يكن شعرًا، ولكنه قرآن على حد تعبير الدكتور طه حسين. هذه الصورة الفريدة كان لها أعمق الأثر وأبلغه في نشر الدعوة وجذب الناس إليها. وامتلأ القرآن بقصص الأولين والآخرين، بل إن فيه لونًا من القصص التاريخي، يفوق بالتأكيد أحدث ألوان الفن القصصي والروائي، مثل قصة يوسف وبلقيس ملكة سبأ، وقصص بني إسرائيل، وهي كثيرة، وغيرها من قصص الأقوام والأنبياء المؤثرة البليغة..

إذن كان القرآن، بشكله الفني الرائع، وألوانه التعبيرية العظيمة، فتحًا في عالم التعبير والتأثير والإيحاء.

وشجع الرسول الشعراء -برغم انبهارهم أمام فصاحة القرآن وبلاغته- شجعهم على إنشاد الشعر في المناسبات المختلفة والرد على خصوم الدعوة، وتصوير الأيام الخالدة، والمعارك الرائدة، مما تذخر به كتب السيرة والغزوات.

لا أنكر أن العصور التالية قد جمدت على هذه الأشكال فترة غير قصيرة من الزمن، لكنها فتحت الطريق أمام القصص الإسلامي، والقصص الديني الذي كان يدبجه الوعاظ في

المساجد، ولم يتردد الأدب الإسلامي في قبول ألوان مبتكرة من القصص المترجمة عن الآداب الفارسية والهندية وغيرها، ولم يعقم الأدب الشعبي بدوره عن نسج آلامه وأحلامه في حكايات وأساطير جذابة اكتظت بها روايات السير الشعبية، مثل سيف بن ذي يزن اليماني، والأميرة ذات الهمة، وأبي زيد الهلالي وغيرهم. ويلاحظ القارئ في تلك السير الشعبية امتزاجها بالتقاليد الإسلامية والقيم العربية الأصيلة، متأثرة في روحها العامة بالنزعة الدينية، ومعاداة الروح الصليبية الحاقدة، مما لا يتسع المجال لذكره، واختيار مقتطفات له..

ولقد أثرت عوامل عدة في عدم تفوق فن الرسم والتصوير وعدم بزوغ عصر المسرح في مجال الفكر الإسلامي.

وأيًا كان الأمر فإن دور الفن عمومًا هو تشكيل الوجدان بما يبثه فيه من عطاءات فكرية وعاطفية، وإذا كنا حريصين على تنمية وتبصير ما يمسى «بالوجدان الإسلامي»، فلابد من التوسل بألوان الفنون المختلفة من إذاعة وتليفزيون وسينما ومسرح وقصص ورسم، بأساليبها الحديثة، وقواعدها الفنية المتعارف عليها، وإن نساهم في إثراء هذه الفنون وتجديدها.

لم تعد القصيدة أو الخطبة وحدهما أداة للتبشير بالإسلام والدعوة إليه، لقد استطاع «سارتر» الوجودي بقصصه

ومسرحياته أن يؤثر في الملايين أكثر من أكبر قسيس في أوربا، بل شاع ذكره عن طريق مسرحيات أكثر مما شاع عن طريق فلسفته، وإذا كان قراء البحوث أو الفلسفات قلة، فإن مشاهدي الروايات السينمائية أو المسرحيات وقراء الشعر والقصة يعدون بالملايين، وليس أثقل على نفوس أجيالنا المعاصرة من الكلام المباشر، والوعظ المجرد. إن محاضرة لعالم بارز لا يحضرها سوى بضع عشرات، ولكن فيلمًا سينمائيًا مثل «كوفاديس» أو «المصارعون»، يشاهده الملايين في شتى أنحاء المعمورة.. لا أريد أن أطيل في شرح هذه القضية البديهية، ولكني أريد أن يسلم بها دعاة الحركة الإسلامية، وأن يرصدوا لها من جهدهم ووقتهم ومالهم ما تستحقه من اهتمام ورعاية، حتى يمكننا أن نصل إلى قلوب الناس وعقولهم بأحب الوسائل إليهم، وأبعدها تأثيرًا فيهم، وأحدثها أسلوبًا لديهم..

وإذا كنا نريد أن نتصدى للركام الهائل من الفنون المنحرفة المدمرة، التي تشيع الإباحية والإلحاد والتمزق، فلا يكفي الصراخ والكلمات المحمومة، والخطب الهادرة، وإنما لابد أن نواجه الفن المنحرف بفن أصيل، قادر على أن يثبت في المعمعة. بل لابد أن نقدم البديل للناس. فهم لا يستطيعون أن يعيشوا في فراغ، أو يرفضوا ببساطة وسائل الأمتاع والتسلية التي تقدم لهم

السم في الدسم، لمجرد مقالة أو خطبة تؤكد لهم أن فيها ضررًا بالغًا على حضارتهم ومستقبلهم، وفيها منافاة لمبادئ دينهم الحنيف..

ولقد توهم بعض أدبائنا ونقادنا أن الأدب العربي القديم، أعني الأدب الإسلامي بتعبير أدق، كان أدب مدائح للملوك والأمراء، وسجلًا للتهاني والمراثي والهجاء العنصري أو الشعوبي أو العقائدي أو الشخصي، وأن القصيدة العربية مجرد قوالب جامدة ميتة.. هكذا يزعمون..

والحق أنه افتراء محض يعوزه الدليل، بل يكذبه الواقع والتاريخ.

لقد كان شعراؤنا أحرارًا بمعنى الكلمة، عبروا عن كل ما يجول في خواطرهم، نحن نجد الشاعر الزاهد إلى جوار الشاعر الزنديق، بل نجد الاثنين في شاعر واحد كأبي نواس، ولقد بلغت الحرية ببعضهم أن تعرض لبعض القيم الدينية، مما دعا بعض علماء الدين لرميه بالكفر والزندقة، ولم يكن الاضطهاد قادرًا على صرف الشعراء عن الإدلاء برأيهم في أحلك أيام الظلم، مما جعل بعضهم يضحي بحياته عن طيب خاطر، من أجل نقد لحاكم، أو مهاجمة لوضع فاسد، أو تعرض لمن يتسترون بالدين، ويرتكبون الحماقات.. والحق أن أبا العلاء

المعري لعب دورًا بارزًا، في عمق النقد وحرية الرأي، وتطويع الفلسفة لبحور الشعر وأغراضه، إنه بلا شك عملاق من عمالقة الفكر الإسلامي الحر، وهو في نفس الوقت مجدد عالمي في كتابه «رسالة الغفران»، برغم القوالب الصعبة، أو لزوم ما لا يلزم في شعره، وهو نوع من الترف الفكري، والتحدي بالإبداع والقدرة، تحدى انحرافات عصره وتحدى عاهته التي رمته بها الأقدار، وتحدى الكفاءات المتنوعة التي ذخر بها عصره، ولولا ضيق المقام لكان لأبي العلاء مئات بل آلاف من الصفحات، برغم كل ما يقال عنه.

ولقد كان بعض شعرائنا ملتزمين بكل معنى الكلمة، لقد نجا عدد كبير منهم من الارتزاق بالشعر، أو السير في موكب الحاكمين، والتزم بقضية فكرية أو قضية سياسية معينة، نرى الشعراء المؤيدين لأهل البيت، ونرى شعراء الخوارج، وغيرهم من الطوائف والمذاهب المختلفة، ولست بصدد تأييد مذهب على مذهب، أو نصرة طائفة على طائفة وإنما يهمني هنا وجود مجموعات كبيرة من الشعراء تتبني رأيًا، أو تؤيد فكرة، محاولة أن تعطي مفاهيمها مسحة الإسلام الصحيح، وهؤلاء الشعراء الملتزمين قاسوا الكثير من الأهوال والتضحيات. كانوا يناصرون فئة مطاردة، أو زعيمًا محكومًا عليه بالموت، وكانوا

معبرين عن الشجاعة الحقة، والرأي الحر دون خوف أو ملل. رفضوا إغراءات الحكم والمال والسلطة، ولم يرهبوا الوعد والوعيد، كانوا بالمصطلح الحديث «عقائديين»، وبالمصطلح الفني «ملتزمين».

ونرى الشاعر كالمتنبي يخاصم أميرًا كسيف الدولة الحمداني، ويهاجر إلى مصر، ويحمل رأيه النقد والتحدي، فإذا ما تبين حياة الزيف والانحراف لدى «كافور» حاكم مصر انقلب عليه، وهاجمه بكل عنف وشدة، وأتى بآيات الإبداع في رضاه وسخطه، في حبه وكراهيته، كان معبرًا عن ذات نفسه، وعن آلام المخاض في مجتمعه، وعن تعقبه لكل فساد سياسي أو أخلاقي.

وفي شعرنا القديم تراث عاطفي ضخم، تناول أدق مشاعر الإنسان، وعلاقات الحب والكراهية، والفراق والهجران والظمأ الروحي، معطيًا صورًا حية لبيئات ومجتمعات متباينة، وما تذخر به من تقاليد وقيم وصراع.

وفي شعر التصوف ومضات مذهلة تشهد بعلو قدره، وعمق نبعه، وغوصه إلى أبعاد النفس، والفكر والوجدان، واليقين.

وواكب شعر الطبيعة والوصف متميزًا بشتى الصور والرؤى وأعطى قدرات باهرة في مصر والأندلس والمغرب والحجاز، ودمشق وبغداد وفارس والهند وغيرها.

ولم يكن شعر العاطفة وقفًا على الوصف الظاهري والمشاهد العيانية، وإنما امتزج بنفس الشاعر، وأبان عن همومه وأحلامه وآلامه، فانعكست في شعره، وفاضت بالإيحاءات المختلفة.

ولم يكن شعرنا القديم مفتقدًا للوحدة العضوية للقصيدة دائمًا، ففي كثير منه ارتباط وثيق، متنوع الأساليب، متصل الحلقات، ومن الظلم الفادح أن يوصم ذلك التراث كله بافتقاده لوحدة القصيدة، وترابط أجزائها.

وذخر شعرنا وأدبنا عامة باللمحات النفسية العميقة، وكان هذا أوضح ما يكون في شعر الحب العذري، والتصوف والخلافات السياسية.

وليس خافيًا أن آدابنا القديمة قد ارتبطت بقضايا عصرها، فصورت ما نشب من حروب، وما تواتر على الأمة من نكبات، سواء إبان الخلافات الطائفية والمذهبية الدامية، أو في الغارات الكاسحة من تترية ومغولية وصليبية، وفتن كقطع الليل، ولم يغفل جانب الحياة الاجتماعية، بما فيها من رغد وسعادة، وما فيها من بذخ ولهو، وما يكتنفها أحيانًا أخرى من فقر وظلم وضياع، ولقد -اصطبغت معاركهم- كما صورها الشعر - بصبغة الدين، وارتبطت بقيمه وهذا هو المهم، يقول شاعر، وهو يخوض المعمعة الضارية:

أقــــول لهــــا وقــــد طــــارت شــــعاعًا

مــــن الأبطــــال ويحــــك لــــن تراعــــي

فإنــــك لــــو ســــألت بقــــاء يــــوم

عــــلى الأجــــل الــــذي لــــك لــــن تطــــاعى

فــــصبرًا في مجــــال المــــوت صــــبرًا

فــــما نيــــل الخلــــود بمــــستطاع

وأرى أن شاعرًا كهذا أصدق تعبيرًا، وأقرب إلى نفوسنا من عشرات القصائد التي تنشد في معركتنا اليوم مع إسرائيل، والشاعر لا ينكر هنا خوفه كبشر، وحرصه على الحياة كإنسان، لكنه يناقش نفسه نقاشًا قويًا مقنعًا، عن الأجل الذي لن يطيله الحرص، وعن الخلود الذي لا وجود له، مستهلمًا تعابيره وقيمه من صلب العقيدة التي يؤمن بها. وما أقوى قول الشاعر محذرًا ومنذرًا وناقدًا:

بنــــي أميــــة هبــــوا طــــال نــــومكم

إن الخليفــــة يعقــــوب بــــن داود

ضــــاعت خلافــــتكم يــــا قــــوم فالتمــــسوا

خليفــــة الله بــــين الــــزق والعــــود

ولا يقف الشعر صامتًا والأندلس يتهددها الفناء، والفرنجة يحيطون بها من كل جانب بل يصرخ في لوعة:

أدرك بخيلــــك خيـــل الله أندلـــسًا

إن الطريـــق إلى منجاتهـــا درســـا

ولا ينكر شعرنا القديم، تفرغ فئة من شعرائه لمدح الملوك والعظماء، فمثل هؤلاء الشعراء موجودون في كل عصر، نراهم في ركاب كل حاكم من الحكام، يتوجونه بالأناشيد ويحلون صدور صحفه بالأماديح، ويعادون من يعادي، ويصادقون من يصادق، ومثل هذه الآفات التي لا يخلو منها عصر من العصور، لا يمكن أن تتخذ مقياسًا للتراث كله، ففي ذلك غبن وسوء نية، وهؤلاء الفنانون المنحرفون ليسوا فنانين بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما هم مجندون لولي النعمة، أو مساقون بسياط الرهبة والوعد والوعيد..

إن خطأنا الأكبر هو أن نطلب من أدبنا القديم أن يعبر عن عصرنا الحالي، وهو تعسف يشبه تمامًا من يطلب من أدبنا الحديث أن يعبر عن واقعنا بعد ألف عام مثلًا، والفن مرآة عصره، ينفعل بما هو واقع، أو يمتزج بالقيم والعقائد التي آمن أو يؤمن به الناس، والفن قد يجمع في طياته التعبير عن آلام الناس وآمالهم، فهو رفيق وهو قائد، وهو مكتشف شديد

الحساسية لما ينبض به المستقبل القريب، وهو أمين على التراث الإنساني الأصيل، وهو ناقد ومجدد يرتاد التجارب، ويغذي وجدان الإنسان على مر العصور، بالأشواق الملائمة.. وإذا كان الشكل الفني قد أصابه شيء من الجمود، فإنه كان دائمًا حي المضامين، متوتر النبضات، حاد الانفعال، باهر الإيحاء، وحينما وجدت الفرصة لظهور أشكال جديدة كالمسرح أو الرواية أو القصة القصيرة والتمثيلية التليفزيونية أو الإذاعية، استطاع أن يقدم روائعه، برغم ما كمن فيها من مروق فكري، وخداع عقائدي، وتوجيه سيئ.

نخلص من هذا كله إلى أن الأدب الإسلامي القديم، لم يكن بالصورة التي حاول المغرضون والحاقدون تصويره بها، ولم يكن أدبًا هروبيًا خائنًا لقضايا التاريخ والإنسان، ولم يقصر جهوده على الأماديح والقوالب المصبوبة، لم يكن عبدًا مطيعًا للسادة والحاكمين، بل تمرد ونقد وحارب وخاض المعركة شجاعًا وتحمل تبعة هذه الشجاعة، وضحى الأدباء بحياتهم أحيانًا من أجل القيم العليا التي آمنوا بها.

ولقد وجد في عصر واحد آداب عدة، لكل نوع مسحته المحلية، في الحضر أو البادية، في المشرق أو المغرب، في هذا القطر أو ذاك من أقطار الإسلام. وفي هذا انصياع للصدق الفني، والتعبير الذاتي. ورغم هذا التباين إلا أن أقلام الشعراء.

كانت تنغمس في النبع الفياض الذي يعمر بأمجاد الإسلام، وصفحات النضال المؤمن. كان معبرًا في غزلياته وأماديحه وزهدياته وخمرياته وعذرياته، كانت صورة حية للعصور المتعاقبة برغم علوه أحيانًا وإسفافه أحيانًا أخرى..

والآن ما هي الخطوط العامة لما يمكن أن يسمى أدبًا إسلاميًا؟

لقد قلنا في البداية إن عالمنا يطالب مفكريه دائمًا بالتحديد والوضوح، وإن أجيالنا إذا ما أصابت قدرًا وفيرًا من الاقتناع استطاعت أن تقود خطى التحول إلى الأفضل، وأن تمسك من جديد براية «الخلاص» والريادة، ذلك الدور الذي قرره الله لها..

إن الأمر يكتنفه قدر من الصعوبة والعسر، ومن ثم فإن المجال يجب أن يرتاده كل من يجد لديه الكفاءة في إلقاء الضوء على هذا الأمر، الذي نحاول عرضه في إطار الوثبات الفنية التي سادت فنوننا المعاصرة..

وسبق أن تناولت هذا السؤال بالإجابة في بعض المقالات الإذاعية أو الصحفية، وفي كتابي «الإسلامية والمذاهب الأدبية»، وتناوله عدد آخر من الكتاب أذكر منهم صاحب كتاب «منهج الفن الإسلامي».

ومن حسن الحظ أن الإسلام لم يحدد «شكلًا» فنيًا معينًا يلزمنا به، بحيث ندور في إطاره، فلا نتعدى رسومه، وإنما حدد الإسلام «المضمون» أو الفكر الذي يتناوله الفنان في الشكل الذي يختاره.

لذلك نحن لا نختلف مع مؤلف «منهج الفن الإسلامي» حينما قرر أن الفن الإسلامي هو تعبير فني عن الكون والإنسان والحياة من خلال تصور إسلامي، فللإسلام نظرة خاصة لهذه الأشياء كلها، ولعلاقاتها وصراعاتها، وصلتها بالإنسان المسلم، فالإنسان سيد الكون والمخلوقات، وبالتالي فالمخلوقات من حيوان وجماد مسخرة لهذا الإنسان، وخلافة الإنسان في الأرض تجعل منه السيد المتصرف في هذه الكائنات والمخلوقات في الحدود التي رسمها الدين. والطبيعة في نظر المسلم مشهد من مشاهد الجمال، ومصدر من مصادر التأمل والاستفادة والاستمتاع وليست إلهًا يعبد ويرتل حوله الترانيم والطقوس التعبدية..

والإسلام يختلف عن غيره من الفلسفات الإنسانية، فمن الفلسفات من يرى أن الإنسان طبيعته الشر، وأن الأصل في الحياة الكذب والنفاق والجبن، حتى قيم الشجاعة والكرم والصدق ما هي إلا رياء ونفاق، وأنها تخفي خلفها أضدادها،

هذا واضح في «الواقعية السوداء» كما يسمونها، وهناك فلسفات أخرى، لا تضع الإنسان موضع السيادة فحسب، بل تجعل منه إلهًا بذاته، منه وحدة تنبع كل القيم والمبادئ، وهو حر في تصرفه، لا يربطه بهذا العالم إزاء هذه الحرية المطلقة ألا تحمل المسئولية، كما يرى «الوجوديون»، وفي ذلك ضرب من الأنانية والتعالي والتمرد على كل دين وقيمة، بل رفض لكل القيم القديمة إطلاقًا..

ومن الفلاسفة، من يرى أن الفن غاية في حد ذاته، وليس وسيلة لبلوغ أي هدف، وهم دعاة «الفن للفن». وهكذا تتباعد مفاهيم المذاهب الفنية والأدبية، وتتصادم. أما الفنان المسلم فله فهمه الشامل للحياة والإنسان وله إيمانه بأن الفن وسيلة.. أجل الفن وسيلة لبلوغ غاية عظمى، ألا وهي تكوين «الوجدان» المشبع بروح الحق والخير والحب، أو بمعنى آخر تشكيل الوجدان الذي يرتبط بإله الكون تلقيًا وعطاء، في ظل القيم الإلهية التي جاء بها الأنبياء، والتي تبلورت في الرسالة الأخيرة إلى الأرض، رسالة محمد بن عبد الله ﷺ التي هيمنت على الرسالات الأولى...

إن أدبًا هذا شأنه يفتح الطريق لخلق الأمة المسلمة والضمير المسلم، وبالتالي يفرض قيمًا، أعني يوحي بهذه القيم إلى الفرد

والمجتمع، وما الفرد إلا جزء من المجتمع، جزء متميز له أحاسيسه ومشاعره وحريته، في الإطار العام، وله علاقاته الواضحة مع هذا المجتمع، دونها تصادم أو استعباد، أو إذابة لشخصية الفرد، أو إهدار لقيم ذلك المجتمع.

من هنا يتضح أمر مهم وخطير، ألا وهو علاقة الدين بالفن، فنرى أن الدين جاء لتنظيم حياة البشر، وإقامتها على أصول ثابتة واقعية منظمة تحمي ذلك الكيان العام، وتفتح الطريق لنموه المستمر، وتخلق فيه الحوافز البناءة، وتمده بالأمل، وتثيره إلى العمل والإنتاج، وتحقيق السعادة الدنيوية الحقيقية التي تؤدي بدورها إلى السعادة الأخروية، وتمد المؤمن بالشوق إلى الاكتشاف وارتياد المجهول.

والفن هو تعبير عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الديني، لكأن الفن جزء من الدين، أو نبض من نبضاته أو موج بقيمه وروحه، من أجل السعادة المشار إليها. لا تعارض إذن بين الدين والفن في ظل المفاهيم الإسلامية، ولا سبب إذن - بالنسبة للفنان المسلم- لذلك الخصام التقليدي بين الفن والدين.

الفنان المسلم واقعي لأنه يواجه قضايا مجتمعه وعصره، ويتأثر ويؤثر ويساهم في حلها، بالتفسير أو التعبير، وبالتغيير

أيضًا، ويكشف عن جذورها ومسارها ومآلها. ذلك شأن الفنان المسلم منذ بداية فجر الدعوة. كان مناضلًا بالكلمة والسيف، مخضعًا تصوراته لما تشرب من نبع النبوة. وليس هناك من دليل سوى حركة التغيير الكبير في الفكر والسياسة والقيم الاجتماعية والعقيدة الإلهية التي واكبت ركب النبي العربي وأصحابه.

والفنان المسلم مثالي بطبعه...

أجل.. لأنه يحلم دائمًا –ولابد أن يحلم- بالصورة المثالية التي يجب أن يكون عليها المجتمع، ويحلم بالمثل العليا التي تشربها على يد معلمه الأكبر..

إنه يحلم بواقع أروع وأجمل.. فهو آمل دائمًا.. متجدد دائمًا.. عيناه إلى الأمام.. وقلبه متعلق بالنماذج البشرية المثالية الرائدة التي تخدم دائمًا قضية الإنسان، والتقدم البشرى، والتفوق الحضاري، يحلم بحياة أفضل، وبعالم يسوده الإخاء والحب والرفاه والعدل والكفاية.

فليكن شعره ومسرحه وقصصه موحية بهذه القيم والآمال، ولتكن تعبيرًا فنيًا أصيلًا عن تلك الأحلام والأماني، متخذًا شتى الأشكال الفنية المتطورة أو المعاصرة، منقحًا فيها، مساهمًا في إثرائها.

ويجرنا هذا إلى تأكيد التزام الفنان المسلم، والالتزام غير الإلزام، فالإلزام خال من الحرية ومؤثر بالسلب في روعة التعبير، وصدقه الفني والفكري، الفنان المسلم ملتزم بالقيم الجمالية التي توافق مزاجه، وملتزم بالمضمون الإسلامي الذي شكل هواه، ومازج عقيدته، وانسكب في روحه. ويوم يسير الفنان المسلم في ركب حاكم منحرف أو شعار مفروض، تحت الوعد أو الوعيد، يخرج من دائرة الالتزام إلى دائرة الإلزام.

وقد يتساءل سائل، هل معنى ذلك أن تسود الجدية..

وتنعدم المتعة والتسلية وهي أهم سمة من سمات الفن عامة؟

والحق أن الفن الأصيل، الذي يراعي القواعد الفنية المتعارف عليها، هو فن ثري بالإمتاع والتسلية.. وإلا لما صح أن نسميه فنًّا، إن سيادة مضمون ما على التعبير الفني، لا يعني مثلًا سلب التشويق والجذب والاندماج في مسرحية من المسرحيات، ولا يعني أبدًا تحطيم بناء الرواية وما فيها من حوار غني، وشخصيات متنوعة، وأحداث متأزمة..

والفن الإسلامي لا يختار نماذجه من أمثلة الخير والحب والفضيلة وحدها بل يقدم شتى النماذج خيرها وشريرها، عاليها وسافلها، وإلا انعدمت الحركة الفنية، والصراع النفسي، إنها معاناة أصيلة نابضة، إنها تحرك الإثارة والتحريض، وتوقظ

هاجع الفكر بالنسبة للمتلقي، وتبعث في نفسه لونًا من ألوان «القلق» العظيم، وتحرمه الرضوخ للكسل والسلبية والأنانية، إنها تجر المتلقي للمشاركة والحركة، والاستجابة بالقول والعمل. وهذا هو الفن العظيم..

وفي ذلك متعة بالغة، وتسلية لا شك فيها في نفس الوقت. وما موقف الفنان أو الأديب المسلم من الآفات الاجتماعية؟

مشكلة الفقر مثلًا:

هل إذا كتب أديب قصة أو مسرحية عن مأساة الفقر بالنسبة لفرد أو مجتمع، أتكون هذه القصة أو المسرحية أدبًا إسلاميًّا؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال، يجب أن ندرك أن الفن الإسلامي، ليس بالضرورة هو الفن الذي يردد كلمة إسلام أو مسلمين أو الله أو محمد بالضرورة، وليس هو الفن الذي يكتظ بالأحاديث النبوية أو الآيات القرآنية، أو شواهد الشعر، إن العبرة ليست بالشعارات أو الألفاظ الخاصة، أو التعبير المباشر.

إن للأدب إيحاء.. وله نكهة خاصة.. العبرة بما يثور في نفس المتلقي من انفعالات واستثارات وروح خاصة.. وأشواق معينة، فإذا استطاع الأديب المسلم أن يكون إيحاؤه ذا مذاق خاص أو نكهة معينة لدى المتلقي، فإن هذا هو المطلوب

وللتوضيح نضرب لذلك مثلًا.. قد يكتب كاتب مسرحية عن الفقر فيكون إيحاؤها للمتلقي مزيجًا من الحقد المدمر، والكراهية العمياء للناس والمجتمع، ويكون إيحاؤها سخطًا على الحياة والمثل وكل القيم سواء أكانت سياسية أو دينية، وقد يكون ذلك الإيحاء بالنسبة للمتلقي دافعًا له إلى الانحراف والخطيئة، كأن يقتل أو يسرق أو يتحلل من كل الروابط الاجتماعية والدينية والأخلاقية.

وقد يكتب كاتب آخر مسرحية عن نفس المشكلة، فتثير في نفس المتلقي الألم والإحساس بالظلم والرغبة في التغيير، فلا يلجأ إلى الجريمة أو التدمير، بل ينطلق في وعي ويقين مستمدًا من القيم الفاضلة، ليحاول التغيير بكل ما أوتي من قوة، في إطار من الفضيلة والخوف من الله، دون جنوح إلى الحقد الأسود، والعنف الأحمق..

ذلك هو الفرق بين الحالتين، وأرجو أن يكون واضحًا. ولو اتسع المقام لقدمت للقارئ أمثلة من المسرح أو القصة أو الشعر في مثل هذا المجال..

ولنجب بعد ذلك على السؤال الذي طرحناه آنفًا:

نعم.. أي أدب يتعرض لآفة من آفات المجتمع كالفقر أو الجهل أو المرض أو الكراهية أو التمزق الاجتماعي، أو

الانحلال الفردي، إنما هو أدب إسلامي بشرط أن يكون الإيحاء لدى المتلقي، واستجابته لهذا النوع من الفن أو الأدب استجابة مرتبطة بروح الدين الإسلامي وقيمه الأصيلة العظيمة...

ولا يظن ظانّ أن الإسلام في مجال التنظيم الاقتصادي إنما يهادن المستغلين والأثرياء، باسم حق الملكية المطلق، فإن الخلل الاقتصادي قد عالجه الإسلام بروح عالية من الكفاءة والعدل منذ مئات السنين، وقد يشتط بنا الحديث إذا ما دخلنا في تفصيل أمر كهذا، ويكفي أن أشير إلى كثير من الكتب المتخصصة التي عالجت هذا الأمر بما فيه الإقناع والكفاية.

وقد يظن ظان أن الفن الإسلامي سوف يسدل ستارًا من الصمت والتجاهل إزاء حيز من حياة الإنسان الكبرى الممتدة، وهو جانب الغرائز وفي اعتقادي أن المجتمع الإسلامي الأول قابل كل ذلك بشجاعة منقطعة النظير، وتصدى لها في وضوح باهر على أساس من فهمه لطبائع البشر، وما يعتمل في نفوسهم من نوازع وانفعالات وغرائز، فالمشكلة الجنسية مثلًا في نظر الدين علاجها يتركز في أشياء كثيرة منها الزواج، والقضاء على وسائل الإثارة من عري وخلوات وغير ذلك، ورأى النبي أن ذلك كله قد لا يكون غير متيسر أو قد لا يعالج المشكلة، فدعا إلى الصوم مثلًا، إلى جانب ما يفرضه على الحاكم من توفير

العمل والرزق لمن ضاقت في وجهه روافد الحياة، ومساعدته في بناء حياة مستقرة تكفل له الطعام والشراب والمسكن والملبس والزوجة.

كما دعا إلى تيسير أمر الزواج، فيما يتعلق بالمهور، حتى سمعنا أن المهر أو الصداق الذي قدمه أحد فقراء المسلمين لعروسه هو حفظه لكتاب الله حسبما أشار عليه الرسول. وغير ذلك كثير.. وواضح أن الإسلام يحاول جاهدًا أن يجد حلًّا نظيفًا لهذه المشكلة، وفي نفس الوقت يحاول التسامي بهذه الغرائز وتهذيبها وكبح جماحها بالوسائل المختلفة حتى يتيسر لها في الوقت المناسب أن تؤدي دورها في بناء الحياة على أسس سليمة.

وقد رأت بعض الدول الأوربية، أو بعض علماء النفس فيها، أن حل المشكلة الجنسية هو بإطلاقها على عواهنها، وترك الحرية الجنسية للنساء والرجال، وأمامي الآن تقرير علمي كامل كتبته إحدى المجلات الغربية «الجنسية»، تقرر فيه أن إطلاق الحرية الجنسية وإباحة الخمور لم يحل المشكلة (هكذا يقول)، وإنما زاد من الملل والعقد النفسية والانهيارات العصبية، وجر إلى كوارث اجتماعية واقتصادية وأخلاقية غاية في الخطورة. هكذا تقول مجلة الجنس.. التي تزين صفحاتها وغلافها بالصور الخليعة والعارية.. المأساة.. أن الكثيرين قد يضيقون ببعض الحدود

والآداب التي يضعها الدين لحماية المجتمع، وحفظ الغرائز وتهذيبها، فيختارون الطريق الأقصر والأسهل، لكنهم في النهاية لا يبلغون الفردوس المنشود، وإنما يصطدمون في نهاية الطريق بالخيبة والضياع والفشل.. وما نراه من «أدب معاصر» إنما يعبر تعبيرًا صادقًا عن تلك النكبة.. إن بدع «اللامعقول»، وضلالات «اللا انتماء»، وخرافات الوجودية، ما هي إلا تصوير لتشنجات الهستيريا، ونوبات اليأس والتمرد والخوف والضياع التي أصابت المجتمعات الحديثة.

ومشاكل العالم المعاصر التي تهدد الكيان البشري بالدمار والفناء، هي نتاج التفسخ الأخلاقي والعقيدي في ذلك العالم.

نعود ونقول: إن الفن الإسلامي لا يتجاهل الغرائز، أو يسدل عليها ستارًا من التجاهل أو النسيان المفتعل، وإنما يقف إزاء هذه الغرائز بما هي أهل له من الفهم والمعالجة، وليس هذا غريبًا، فإن كثيرًا من علماء النفس المحدثين يؤيد هذه الفكرة، ويدعمها بالدراسات الطويلة والإحصاءات المختلفة..

والفن الإسلامي قادر على أن يخوض غمار هذه المشاكل دون خوف أو خجل، في إطار فني معين، ضمنه مضمون واضح نابع من القيم الإسلامية العليا.

وعالم الفن الإسلامي عالم فسيح رحب، يستوعب التجارب الأسطورية والتاريخية والواقعية المعاصرة، ويجول في أنحاء الشرق والغرب، ويبرز التجارب المحلية والعالمية، ويرتبط بقضايا الإنسان عامة وقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة خاصة.

إن الرباط العقيدي بين دول الإسلام قاطبة يجب أن يكون له حيز كبير من اهتمامات الفن والفكر الإسلامي، وأن يحارب التقوقع والشعوبية العنصرية، ويحارب شتى ألوان التمزق بين هذه الأوطان.. ليكن شعاره أمة واحدة برغم الخلافات والحدود والألوان والأجناس. على الفن الإسلامي أن يربي في ضمير الفرد المسلم المسئولية الكبرى تجاه الوطن الأصغر وتجاه الأمة الإسلامية الكبرى، واستيعاب مشاكل هذه الأمة وهمومها وتطلعاتها، وتغذية الصلات الأخوية بينها بروافد الحياة والقوة.

تجارب الفنان المسلم تمتد من الفرد الواحد إلى العالم بأسره، وتستوعب عديد التجارب، واكتشافات العصر العلمية والفنية، وتقف أصيلة متميزة بسعتها واتجاهها وحريتها، واحتوائها لعناصر الحب والخير والجمال.

الفنان المسلم يجب أن يدعم وعيه بالمثابرة والعلم والتفتح والإخلاص والصدق، وأن يمنع ذاته من الذوبان والتميع

والسقوط في كل الظروف، وفي أي مكان، وأن يفتح عقله وقلبه لتجارب الإنسان كي يفرزها، ويستفيد منها، وأن يكون نشطًا متجددًا حرًا قادرًا..

وبذلك يصبح الفنان المسلم كما يقول «إقبال» شاعر الإسلام العظيم:

إنما «الكافر» حيران له الآفاق تيه

وأرى «المؤمن» كونا تاهت الأكوان فيه

هذه بعض الأفكار عن الفن الإسلامي، حاولت جاهدًا أن أضعها في إطار شبه محدد، وأن ألمس أهم الجوانب المتعلقة بهذه القضية الحساسة، داعيًا مرة أخرى مفكرينا والمهتمين بشئون الفن والدين والفكر عمومًا، كي يعالجوا الأمر بما لديهم من خبرات وأن يزيدوه ثراء ونماء وفهمًا..

والله أسأل أن يجنبنا الزلل، ويعصمنا من الخطأ، ويغفر لنا هفواتنا وما قد نكون قد وقعنا فيه من خطأ غير مقصود..

***

الانتماء.. والالتزام



«إن الخطر لا يكمن في السلاح الحديث الذي يمتلكه الأعداء بقدر ما يكمن في الخراب الفكري والعقائدي الذي يطلقه العدو...»

ما أكثر الورق الذي تسود صفحاته كل ساعة، وما أكثر الكلمات التي تقال وتنشر، تحولت «هيبة» الكلمة إلى ابتذال وعبث. سقطت المسئولية التي تحملها الحروف فضاع الشباب وسط ركام من النظريات والفلسفات الأخلاقية والسياسية، ولذا لم يكن غريبًا أن يظهر مذهب جديد اسمه «اللا منتمي»..

ظهرت هذه البدعة، ليتشبث بها الضائعون والتائهون.. ولكي يتأصل الخداع في ضمائرهم وعقولهم أسموها «فلسفة».. وهي في الحقيقة لا شيء.. إنها لا ترمز إلا إلى الانعتاق من كل مسئوليات العقائد، والانفلات من كل القيم، ولا أقول إنها استمساك بالذاتية أو الفردية أو الهوى الشخصي، فالذاتية فلسفة.. لكنها -أعني فلسفة «اللا انتماء»- هي الانطلاق

المجنون.. أو الفصام كما يقول علماء النفس.. كسائق سيارة ينطلق دون التقيد بشارات المرور، لا يعبأ أكانت حمراء أم صفراء أم خضراء.. يقتحم الأرصفة، أو يصطدم بالمشاة والبيوت.. والأشجار وسيارات الآخرين..

الغريب أن المروجين لهذه الفلسفة يسمونها «موقفًا».. وأحيانًا يدعونها.. وجودية.. وتعبيرًا عن الذات.. بل ويحاولون أن يضعوا لها القواعد والأصول.. أنها أشياء مضحكة في حقيقتها.. ويتحدثون عن الالتزام وهي نقيض الالتزام على طول الخط..

وقد تكون لهذه «البدع» الفكرية في أوروبا ما يبررها، لكن في الشرق المستعبد الممزق التائه، يلتقطونها ويروجون لها، ويتخذونها دينًا جديدًا، فيسقطون في خطر داهم، وفناء محتم، إن الخطر المحدق بالأمة الإسلامية، لا يكمن في السلاح الحديث الذي يمتلكه الأعداء أو الطائرات التي تتربص بها وتخترق حاجز الصوت، أو التفوق التكنولوجي أو الإلكتروني الذي يحيط بها من كل جانب، بقدر ما يكمن في الخراب الفكري والعقائدي الذي يطلقه العدو. فيعمل فينا عمله بأخبث الوسائل وينفث شروره وسمومه، ويطمس معالم الطريق أمام أجيالنا.. ومن جاءت الهزيمة.. وحلت النكبة.. واسودَّت

صفحات التاريخ.. أن من ينظر إلى صفحنا ومجلاتنا ومطبوعاتنا في السنوات الماضية، وقبل الحرب المخزية، وبعدها أيضًا، يستطيع أن يقرأ بوضوح سوء المصير، ويشم رائحة الضياع والحسرة. فهناك شعارات يومية عالية الصوت، سوداء أو حمراء، تسد الآذان وتزحم الرأس، وتهتف بها أجهزة الأعلام في كل مكان، وهناك معارك وهمية من يتفحصها ويمعن الفكر فيها، لا يكاد يجد دوافع حقيقية وراءها.. اختلطت الأوهام بالحقائق وغلبت الأكاذيب على الصدق، وامتزج الكفر بالإيمان، واختلت كل الموازين والأوزان، وكان المفروض أن تكون الهزيمة الكبرى صيحة عالية النبرة.. بل عاصفة صاخبة.. تصفع النيام المخدوعين، لكي يستيقظوا.. ليفكروا.. لا أن يهرولوا إلى السلاح فحسب أو حشد الحشود، ورصد الميزانيات العسكرية.

إن الهزات التاريخية الكبرى تحتاج أول ما تحتاج إلى وضوح.. هذا الوضوح يجرنا -إذا صدقنا مع أنفسنا- إلى البحث عن «الذات المفقودة»- إذا صدقنا مع أنفسنا- إلى البحث عن «الذات المفقودة».. عن شخصيتنا المتميزة بفكرها وأصالتها وعقيدتها، والشخصية العقائدية.. أعني الشخصية المسلمة.. هي المنطلق.. وهذا كلام برغم بساطته يحتاج إلى كثير من الفهم والإقناع والاستقراء التاريخي. والشخصية المسلمة، تعرف

مكانها في الوجود، ورسالتها في الحياة، وأسلحتها الروحية والمادية، وتعرف مقاييس الموت والحياة والقوة والضعف، والحرب والسلم، لها علاقاتها المتسقة العادلة والطبيعية مع الآخرين وتصوراتها لمشاكل الحياة عامة والنفس الإنسانية خاصة. وما أكثر ما كتب الكتاب المؤمنون في ذلك..

والشخصية المسلمة «منتمية»، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى..

وهي أيضًا «ملتزمة» بما احتواه فكرها وضميرها من عقائد وتصورات..

وهي شخصية لا تنكر «الصراع» الداخلي، لكنها تنجو دائمًا من التمزق والتحلل..

والشخصية المسلمة مرتبطة بتراثها العريق، لا ارتباط وثنية، أو تقديس، لمجرد المومياات والآثار والذكريات والمعارك القديمة لذاتها، ولكنه ارتباط عقيدي صادق، يجعل من هذا التراث قوة وفكرًا وحضارة.. يجعل منه دعائم لشخصيتنا التاريخية الأصيلة فتراثنا تجسيد لرسالتنا، وتجربة حية ناضجة وناجحة ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:138].

والفلسفة -أية فلسفة- لا قيمة لها ما لم تشكل عقول الناس وفنهم وسلوكهم، وتخوض معارك الحياة، وتتلاحم مع مشاكلها، وتتحدى خبثها وانحرافها وزيغها، بالنور الثاقب الذي تشعه الشخصية الأصيلة المتميزة.

تلك هي البداية.. أن نمزق ألوان الوهن الفكري، والتميع الأخلاقي، والتحلل الذاتي. وأن يكتسي العراة وذوو الثياب المرقعة، بردائنا الحقيقي، وأن ينسكب في ضمائرنا وفكرنا النبع الصافي، الذي أشرقت به أيامنا الخالدة، وانمحت به وساوسنا، وتأكد به انتماؤنا والتزامنا..

الدساتير المؤقتة، لا تعطي للشخصية الجديدة الثبات والاستقرار واليقين، ولكن تزرع فيها الخوف والتردد والانتظار المزهق المعذب، والقيوم الاستثنائية تصرع الحريات، وتذيل المواهب، وتقتل الروح، والمواقف السريعة المتناقضة المترددة لا تفرز سوى العلل من «شيزوفرانيا» و«بارانونيا» ووساوس قهرية بلغة علم النفس، والمجاملات سواء أكانت فردية أو دولية، لا تترك وراءها سوى الانهيار الأبدي للقيم العالية، وأسس السعادة الإنسانية، والاعتماد على الغير في كل شيء..

طفولة.. وحتى الأطفال قد يثورون أو يتمردون ويحاولون إثبات ذاتهم.. أما الطفولة السياسية فهي خضوع تام.. وانمحاء للذات.. هي موت أدبي ومادي وسياسي واجتماعي وفكري..

المعرفة أولاً..

وعندما نعرف من نحن، وفي أي عالم نعيش، ونعرف من أين أتينا وإلى أين نسير.. يأتي «الانتماء»..

والمنتمي «ملتزم»..

إنه رجل عقيدة وفكر، رجل حركة وعمل، يسترخص كل شيء في سبيل عقيدته، ولا يقيس المعارك بحساب الحياة والموت والخوف والخسائر المادية، وإنما يقيسها بالعمل الجاد المتواصل، أعني الجهاد.. بشتى فروعه وألوانه.. وبمقاييس الحق والعدل التي تشربتها روحه من النبع الإلهي الصافي..

المعرفة.. الإيمان.. الحرية.. الشخصية المتميزة.. تلك معالم الطريق إلى عالم أفضل.. تنحسر عنه النكبات والهزائم.. والضياع.. والتمزق.

فهل من مدكر؟؟

***

أزمة المثقفين



«وكان الإرهاب الفكري أعنف وأقسى من سياط الجلادين، وأسوار المنافي، فما أن يطلع على الناس عمل فكري أصيل، أو أداء فني متحرر من أشكال العبودية والتبعية، حتى يرمى بالانحراف والتخلف... والتبعية».

آفة الأمة تكمن في ضياع مثقفيها وتمزقهم، وهي أزمة كثر الجدل حولها، في السنوات الأخيرة، وقلما تجد دولة من الدول الإسلامية إلا وتناقلت هذه القضية من قريب أو بعيد، وحاولت الوصول إلى بعض النتائج. وأيًا كان الأمر، فإن تلك القضية قد تشعبت وتعقدت، ولم تبلغ بعد مرحلة الوضوح. وهناك أمر لا يستطيع أي مفكر منصف أن يتجاهله وهو أن المثقفين، لا تقع على عاتقهم وحدهم مسئولية الانحراف الشائن، الذي أحال أمتنا إلى تجمع يفتقد إلى السمات، أو الصفات التي تميز أية أمة أصيلة من الأمم.. ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن هو تلويث معنى الحرية في أمتنا، فقد تخبط كثير من المخططين للمسيرة

الشعبية، في تحديد معنى الحرية. وحاول البعض أن يركز على أن الحرية الحقيقية لا يمكن أن يبزغ فجرها إلا في ظل تأمين لقمة العيش، أو العدالة الاجتماعية للسواد الأعظم، وقرر آخرون أن الحرية هي الحرية السياسية في القول والعمل والنشاط الاقتصادي، دون قيوم مفرطة، أو ضغط صادر من السلطة العليا، وظن البعض أن الحرية تكمن أساسًا في انطلاق النزعات أو النزوات الفردية، دون تقيد بدين أو خلق أو فلسفة قديمة. ومن ثم تشعبت السبل، وأصبحت السلطة الحاكمة هي التي تحدد مفهوم الحرية وتطبيقاتها. ونستطيع أن نقول إن المثقف العصري وقف إزاء السلطات مسلوب الإرادة، مقيد الفكر، لا يستطيع أن يختار أي طريق يخالف طريق القوة التنفيذية، كما خضعت السلطة التشريعية بدورها للسلطة التنفيذية، وانعكست الآية، فبدلًا من أن تكون السلطة التنفيذية أداة مرنة في يد السلطة التشريعية، أمست السلطة التشريعية خادمًا أمينًا يسير مرغمًا في ركاب القادرين. وانطلقت أصوات ضعيفة معلنة رفضها لهذا الخلط الخطير، والانحراف المشين. لكن سرعان ما اندحرت تلك الأصوات، أو كتمت عنوة، وطوردت أعنف مطاردة، وانطلقت الأبواق الحمقاء ترميها بالخيانة لقضايا الشعب تارة، والسير في ركاب الأعداء تارة أخرى. ولو كان الأمر أمر عام أو عامين لهانت الكارثة ولكنها امتدت لسنوات

طويلة، فتخرج في هذا الجو الموبوء جيل فاسد -له عذره- لا يتلقى وحيه إلا من خطب الزعماء، أو برامج التليفزيون والإذاعة، أو مقالات الصحف المدبجة، أو معاهد العلم التي تسير على نفس النسق.

وملأت الآفاق شعارات رنانة، كان لها قوتها ومفعولها في نفوس السذج والبسطاء والخانعين، وأصبح شعار «أعداء الشعب» يطلق على كل من تسول له نفسه الجهر برأي يخالف رأي السلطة التنفيذية، حتى ولو كان هذا الرأي وجيهًا مبرءًا من الغرض الخبيث، أو الطمع الشخصي، فلم يكن غريبًا أن يأتي يوم، ويطلق نفس الشعار على صانعيه والمروجين له في كثير من دولنا، في أعقاب التغيرات المتعاقبة التي تطرأ على نظم الحكم في مكان أو آخر.. ولم يفكر مصدرو الشعارات في أن أولئك المظلومين -أعداء الشعب- إنما هم الأمناء على شرفه ومسيرته النضالية، وهم سدنة الحرية الحقيقيون، وهم الذين نأوا بأنفسهم عن الذوبان والتشويه والقيود الجائرة، في عالم «القوالب» التي مسخت إنسانية الإنسان.

ونفس الشيء حدث بالنسبة لكلمة «الرجعية» إذ التصقت تهمتها بأولئك الواعين العقلاء سواء أكانوا يساريين أو يمينيين، لأن المهم في الأمر ليس اليسارية أو اليمينية، ولا التقدمية أو

الجمود، إن التقاء السلطة التنفيذية على مغنى أو مجموعة من الآراء، هو التقدم والازدهار وهو التحرر والانطلاق، وهو العدالة والرفاهية، وما عداهم فهم المعوقون لحركة التاريخ وهم الثورة المضادة، وهم البرجوازية المتعفنة، وهم الفئات المغرر بها، ولذلك ظهرت في عصرنا بدعة «العزل السياسي» التي أورثت شعوبنا، كثيرًا من الشك والتمزق واليأس، وحرمت كثرة ضخمة من ممارسة حقها في التعبير الحر، والبناء السليم، وكأن المواطن أصبح ضيعة لفئة دون غيرها، وتحول الباقون إلى إجراء أو عبيد..

وهكذا صار المفكرون -كما يقول المفكر الروسي الهارب- مجرد آلة صماء تعزف السلطة على حروفها فتطبع الحروف منمقة وجميلة، وزيفت نماذج البطولات، وشوهت المثل العليا، واتخذت لها أشكالًا ومضامين جديدة أبعد ما تكون عن الإنصاف والصدق..

وكان الإرهاب الفكري أعنف وأقسى من سياط الجلادين، وأسوار المنافي فما أن يطلع على الناس عمل فكري أصيل، أو أداء فني متحرر من أشكال العبودية والتبعية حتى يُرمى بالانحراف والتخلف والتبعية، ويعتبر صانعوه مرتدين خائنين، ومن ثم أصبح النقد لونًا من المطاردة العنيفة لكل ما هو جاد

وأصيل، حتى وجد المخلصون أنفسهم محصورين في زوايا ضيقة، مرغمين على الاستسلام والصمت، وخلا الميدان إلا من العازفين على أوتار القيثارة الرسمية، فتحول الفن والفكر إلى هتاف وصياح وصرخات تشنجية، وأصبحت الحرية هي تحدي القيم العريقة، والسخرية من القيم الروحية، والتجاهل لبطولاتنا وتاريخنا، وأدخلت على ثقافتنا مثل غريبة، أبعد ما تكون عن آمالنا وتطلعاتنا وشخصيتنا المميزة.

وهكذا بدأ الفكر شعارات مستعارة وتحول الفن إلى قصائد مدح يترنم بها الخائفون أو الطامعون، وأصبحت الحرية معنى من معاني السيطرة والإذلال لغير السائرين في الركب المتسلط..

تلك هي البيئة التي يعيش فيها المثقفون في أمتنا الكبيرة التي تربو على الستمائة مليون، وهي بيئة لا تسمح للبذور أن تنبت فيها، وإذا نبتت، وظهرت السيقان على وجه الأرض متحدية عوامل الجفاف والتقلبات الجوية، فإن الأيدي الآثمة تمتد إليها لبترها أو لسحقها، بيئة لا ينبت فيها غير العوسج والشوك والنباتات المتسلقة..

ولقد فقدت أجيالنا التائهة المخدوعة احترامها للمثقفين من أبنائها، إذ صورهم المغرضون بصورة المتخلفين عن قضايا عصرهم، وبصورة اللاهثين وراء فتات الموائد، والمترددين أو

المتقاعسين أمام القضايا المصيرية، ولكي يخفوا هذا الظلم الواقع على هؤلاء المثقفين، أو يداروا وجهه الحقيقي، نادوا بأن هذا العصر عصر العلم، عصر التغيير والتطور السريع لا عصر الشعر والفكر المريض والحريات التقليدية الزائفة.. إن ضيق الأقوياء المسيطرين بوعي الفكر وأمانته، جعلهم يتخطبون في آرائهم ويلقون بالكلام على هواهنه، ويخلطون خلطًا مضحكًا، وينادون بقضايا لم يعد ينكرها أحد، فالعلم ضرورة، وكذلك الفكر أو الفن ضرورة، والحرية ضرورة، وهي كلها نسيج واحد، أو بناء متكامل، وذلك التفسخ الذي يروج له الحمقى، إنما يكون على حساب مستقبل أمتهم ومستقبلهم أيضًا.

إن غياب الشخصية المؤمنة المتوازنة، ذات السمات المميزة الصافية المأخذ والعطاء، قد خلف لنا «بناة» من نوع غريب، نوع من البشر الهلاميين المتعصبين، يخوضون معارك من الوهم، حيث لا موجب لمعارك، ويضربون يمينًا مع أن عدوهم يقبع لهم يسارًا، ويتراجعون إلى الوراء، من حيث يجب أن ينطلقوا إلى أمام، وينتشون بكؤوس فارغة ليس فيها غير الخداع والسراب، ولم يستطع هؤلاء «البناة» أن يقدموا للعراة والظماء سوى بيت من العنكبوت. وكيف يثبت بيت العنكبوت أمام خبث العدو ومكره ودهائه وفكره وفنه وعلمه ووعيه... وكيف يستطيع

الخائفون والمترددون ولابسو الأقنعة الزائفة أن يحسموا قضية، أو يستميتوا في معركة، أو يحموا كرامة؟

أجل إن تلك البيئة التي تنتشر فيها الأوبئة، لا تهب الصحة والعافية للذين يخوضون في أوحالها ومياهها الآسنة، لكن المثقفين الحقيقيين، يجب أن يضعوا على رؤوسهم عصابة «أبي دجانة»، وأن يتحدوا عوامل الوهن والخوف، وينتصروا على الوباء، وأن «يحصنوا» فكرهم وفنهم بمضادات الفناء التي يخطط لها عدونا الأكبر... ويجب أن ندرك أن الأوبئة دائمًا تأتي في موجات ومواسم، ولم يثبت طول التاريخ الإنساني، أن أي وباء مهما كانت قوته وعنفه استطاع أن يفني الجنس البشري.. المثقفون هم أطباء هذا العصر، ويا ويحنا إن تحولوا إلى طائفة من الدجالين أو السحرة أو كاتبي التمائم والتعاويذ..

وأنا لا أرفض التحيز بالنسبة لأي مثقف، وهذا مجرد رأي، لكن الذي أرفضه أن يكون هذا التحيز منبعثًا من ثقافة ناقصة، أو خبرة متهافتة. إن لكل مفكر موقفًا، ولكي يختار موقفه، يجب أن يتدارس المواقف المهمة والبارزة فكثيرًا ما قرأت لقوم يهاجمون الأديان دون أن يلموا بأصولها الأولية، دون أن يعرفوا فرائض الوضوء، فما بالك بالبناء الكبير الذي يضم الفكر والأخلاق والاقتصاد والسياسة.. إلخ!! وكثيرون أخذوا

علمهم عن مبشر حاقد، أو مستشرق ناقم، أو كاتب موتور، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة البحث عن الحقيقة المجردة في منبعها وأصولها.. لذا أقول لا بأس أن يكون لكل مفكر موقف.. أي أن يتحيز لموقفه.. على أن ينطلق هذا الموقف عن وعي وفهم ودراسة..

إن المثقفين في أزمة..

وأنا أدعو كل مؤمن، أن يساهم بنصيب في إضاءة جوانب هذه القضية الكبرى في عصرنا..

***

الأزهر



«... لو حدث ذلك فلن يسير العلماء في ذيل الموكب، أو يستخدموا لغايات غامضة. إن العلماء في الدول المتحضرة هم أصحاب التأثير الحقيقي في هذا العصر».

لا ينكر أحد الدور الكبير الذي لعبه الفكر الديني في تاريخ أمتنا، فقد استطاع الفكر الديني أن يحمي تراث شعبنا، ويصمد لتيارات الغزو، ويساهم بالنصيب الأوفر في تحريرنا من ربقة الاستعمار، ويحافظ على سمات شخصيتنا. وإنني لألقي نظرة عابرة على تاريخ العالم الإسلامي الكبير، فأرى أعلام نضاله هم العلماء حملة القلم والسيف، سواء في الهند أو أندونيسيا، أو إيران والشام وتركيا ومصر والمغرب العربي، حيث كانت أعلام الإسلام تخفق في سماء المعارك الكبرى. ولا يعنيني في هذا المقام أن تكون هذه المعارك قد تعثرت في قليل من الأحيان، أو استطاع الماكرون أن يسرقوا ثمرة كفاح الجهاد المقدس، وإنما

الذي يعنيني أن الفكر الديني في إيجابيته، لم ييأس أو يزايد أو يساوم، وأثبت كفاءة عالية ستبقى أبد الدهر مفخرة من أعظم المفاخر، برغم الشغب الإعلامي الذي أطلق قنابله المسيلة للدموع لتعمية الجماهير وتشويه وجه النضال الإسلامي الباهر..

والمثقفون في أمتنا، للأسف، عموا عن هذه الحقيقة، أو تجاهلوها أو جهلوها، وكيف لا يحدث ذلك، ومصادر السلطة تنحو هذا المنحى، مدعمة بتوجيهات الحاقدين من المستعمرين والمبشرين وكيف لا تضطرب مفاهيم المثقفين، وهم يرون «التاريخ» الجديد، وفلسفته المضحكة، وماديته المسيطرة، تفرض سلطانها على المؤرخين، فيعيدون كتابة التاريخ من وجهة النظر الطبقية، أو التحولات الصناعية، والأزمات الاقتصادية، وكأن العامل الأوحد في صنع أحداث التاريخ هو الاقتصاد، كما يزعم ماركس وغيره. وما دام الأمر أمر ماركس، فليكن الدين أفيونًا للشعوب. وليكن الفكر الديني خديعة وخيانة لحركة التاريخ، ولطبقة الكادحين، وثورة مضادة للتقدم، ومن ثم لم يكن غريبًا أن يسحب مثقفونا ستارًا من التجاهل على روعة الفكر الديني وأثره، ويلصقون «الكليشيهات» الماركسية، على أقفية التاريخ المسكين، ويزوقوه بالشعارات الخادعة، فيتحول إلى «بلياتشو» تعس يثير الضحك عند السذج، كما يثير الدموع عند الواعين المقهورين..

هذه الضغوط الهائلة والتهم الباطلة التي وجهت بدهاء وخبث نحو الدين وفكره ورجاله، قد عوقت من انطلاقاته، وأربكت من خطواته، وكان المفروض في المثقفين برغم كل شيء أن يفتحوا أعينهم جيدًا على الخدعة، وأن يحموا تراثهم وفكرهم الديني، وأن يطالبوا بالحرية الحقيقية لعلماء الدين ومؤسساته. وأراني في هذه العجالة مضطرًا لتناول أخطر منصب ديني في البلاد الإسلامية، وهو منصب شيخ الأزهر، الذي يوشك أن يفقد تأثيره ودوره الجبار. وقبل أن أتناول هذا الأمر، أريد أن ألفت نظر المثقفين في بلادنا الإسلامية إلى «البابا» في روما، حتى لا يظن ظان أن ما سأقوله يعتبر بدعًا أو هذيا لا يليق بعصرنا، فالبابا يعيش في الفاتيكان ككيان محترم، لا يخضع لسلطة أو ضغط معنوي أو غير معنوي، الباب في روما له سفراؤه وسلطاته، والبابا يبدي رأيه في أعتى المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دون أن يساور أحد الشكوك في أن ذلك خارج عن اختصاصاته، وقد يكون رأي البابا مخالفًا لحكومة إيطاليا، وقد يهاجم الحكومة في عنف، وتتردد كلماته في جميع أنحاء العالم المسيحي دون رقيب أو وعيد، وتنحني الرؤوس اعزازًا واحترامًا. لم يفكر أحد في أن يقول للبابا لا تخلط الدين بالسياسة، ولا تمزج العبادة بنظم الحكم... ولم يفكر أحد أن يحيل البابا على التقاعد، أو يهدده بالفصل...

إن منصب شيخ الأزهر يحتاج إلى وقفة طويلة، يحتاج إلى تفكير منصف من مثقفينا الذين يهمهم مستقبل الأمة الإسلامية ومستقبل دينهم وفكرهم، وأراني هنا مضطرًا أن أطلقها في قوة وصراحة: يجب أن نحرر منصب شيخ الأزهر تحريرًا كاملًا من كافة الضغوط والتأثيرات والمعوقات. يجب أن يعطى هذا المنصب «حصانة» كاملة، أسمى من تلك الحصانة التي يسبغها الحاكمون في أية دولة على سدنة الحكم والسياسة، وحفظة الأمن -الاستخبارات- وأعضاء المنظمات الحزبية الذين يتمتعون بالثقة الكبيرة.

يجب أن نخطو الخطوة الأولى في هذا الطريق، وذلك بألا يكون للحكومة أو لرئيس الدولة أية سلطة أو رأي في تعيين شيخ الأزهر، بل يكون تعيينه بناء على رغبة أكبر وأعلى هيئة دينية إسلامية في البلاد ألا وهي هيئة كبار العلماء، هذه الهيئة هي التي تنتخب من بينها الرجل المناسب من الناحية العلمية والأخلاقية والصحية ليملأ هذا المكان المهم في العالم الإسلامي، وأن ينظم ذلك لائحة واضحة متحررة من كل ألوان الرغبات السياسية أو المذهبية، ودون شروط مسبقة، وألا يكون لتاريخ الرجل السياسي ورأيه أثر في ذلك..

والخطوة الثانية، أن يظل شيخ الأزهر في منصبه باقي حياته. إن شيخ الأزهر بشر، وقد يتأثر بالضغوط المتعلقة ببقائه في

منصبه أو إخراجه منه، وتحريره من تلك الضغوط يحميه من الانتكاس، وينجيه من كارثة الصمت حيث لا موجب للصمت، وينجيه من الوقوع في بعثرة الكلام حيث لا موجب لذلك، ويجعل من توجيهاته وكلماته منارة لأبناء الأمة في مشارق الأرض ومغاربها..

وأطالب أيضًا بحصانة مماثلة لهيئة كبار العلماء، كالحصانة المتاحة لنواب الأمة والتي يكفلها القانون. إن أية قيود توضع للحد من حركة شيخ الأزهر أو هيئة كبار العلماء، تعني عدم الثقة.. تعني الخوف من كلمة حق تقال.. تعني شلل الفكر الديني وإعاقته عن أداء دوره..

لو حدث ذلك، فلن يسير العلماء في ذيل الموكب، أو يستخدموا لغايات غامضة، أو حاشية في أي بلاط. سيؤدون دورهم الطليعي المؤثر، بما يملكون من صلاحيات حقيقية، وميزانية كافية، وجوهر أصيل. إن العلماء في الدول المتحضرة هم أصحاب التأثير الحقيقي في هذا العصر، وانتظام عالم الدين في هذا النسق إن لم يكن فرضًا فهو ضرورة..

ويجب أن يكون لشيخ الأزهر سلطاته، وكذلك العلماء. فما أكثر الكلمات المنصفة الجادة التي لا يستجيب لها أحد، لماذا لا يوضع ذلك كله موضع التحقيق والتحري؟؟ إن تجاهل كلمة

الدين أصبح أمرًا مألوفًا لا يثير ثائرة أحد، أو يحرك جمهورنا المستسلم.

لكني في نفس الوقت لا أنكر أن هناك فجوة كبيرة بين علماء الدين والمثقفين في أمتنا، ولن نستطيع أن نقضي على هذه الفجوة إلا بعمل بناء مشترك من الطرفين، فعلى رجال الفكر والثقافة الدينية أن يهتموا «بلغة العصر»، وأن يقتربوا أكثر من تراث عصرهم واهتماماته وإنجازاته، وعلى المثقفين أن يستكملوا ثقافاتهم الدينية والتاريخية ويتحرروا من شعارات الإثم والتهريج وأن يدركوا أن حركة التاريخ لا يحركها عامل واحد مهما عظم، وأن التغيرات الكبرى، لا تدفعها حتمية اقتصادية فحسب، وإنما هناك عديد من العوامل تلعب دورها في صنع الأحداث...

إن في حياتنا العامة أسسًا قد نخرها السوس والعطب، وهيهات أن يشمخ فوق ذلك الخلل بناء، أو تستقر عليه قوة حقيقية، فإذا أردنا النجاة فلا مفر من أن نكون شجعانًا في مجابهة الفساد، وأن ننفي الخبث، حتى نضع الأساس السليم، كي يصمد عليه بناء المستقبل الكريم، ومن أبشع ما في حياتنا العامة إهدار الحريات، وتجاهل العلل، واللجوء إلى المسكنات الوقتية أو نصب حلقات الزار، وإطلاق البخور، والانتعاش الوقتي بدقات الطبول، وصراخ الناي الهستيري..

وأملي كبير في أن ذلك «الرمز» الكبير الذي صمد للدهر ألف عام منذ بناه جوهر الصقلي، وتحطمت على صخرته غزوات الطامعين والطاغين، أملي أن يبقى بإذن الله درعًا للإسلام والمسلمين.. ومنارة للسالكين.. ونبعًا للعطاش في حياة الظمأ والعناء والآلام.

ودعاء من الأعماق بأن يمد الله في عمره، ويجعله أعلى منبر على الرقعة الإسلامية الشاسعة..

***

الحرية



«متى استعبدتم الناس
وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا»

الفرق كبير بين حفظة الأمن وجلادي الشعب، حقيقة مهمة يجب أن يدركها المثقفون في أمتنا، والحقائق البديهية الأولية للجدل الفارغ، والتبريرات المضحكة. وأنا لا أسوق الكلام اعتباطًا، ولا أتهم المثقفين بما ليس فيهم، فلو نظرنا إلى الحقبة المنصرمة، لوجدنا كثيرًا من الأقلام الخائفة أو الطامعة، كانت تبرر العنف، وتختلق له الأعذار في الداخل والخارج. أذكر أنه عندما صدر كتاب «الحرب النفسية» لرجل المخابرات المصري القديم صلاح نصر، أفردت له بعض الصحف مساحات كبيرة لعرضه، والثناء عليه، وتحليل «روائع» الفكر العميق فيه..

وكان الكتاب دعوة صريحة لهدم النفس الإنسانية، وكيانها الروحي والبدني فيما يسميه المؤلف بعملية «غسيل المخ».. كان دعوة لمسخ الإنسان، وتحويله إلى حيوان للتجربة ولم نقرأ سطرًا واحدًا في مهاجمة الكتاب، أو مجرد نقد منهجه أو الاعتراض على

الأسس السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي نهض عليها. ثم تمر الأيام ويسقط صلاح نصر.. وتنهال عليه التعليقات، ويرمى بالخيانات، ثم تأتي نفس الصحيفة بل نفس الكاتب الذي أثنى على كتاب «الحرب النفسية» يأتي ليكتب أعمدة ضافية عن انحراف المخابرات وتزييفها للوقائع، وإرهاقها للفن والفكر وحرية الإنسان وكرامته، وتدميرها أو تشويهها لمكاسب الشعب.

إن المثقفين في أمتنا يدركون قبل غيرهم، أن «حرية الكلمة» تضيء الطريق، وتسرع بالخطى إلى التقدم الحقيقي، وتخلق الوعي المستنير، وتحرك الفكر، وتثري الوجدان، وتصنع الإنسان المتحضر المتفتح.. الكلمة الحرة تجعل من أفراد الأمة مواطنين شرفاء.. قادة.. كلهم قادة.. وأعني بالقيادة، شعور كل فرد بمسئوليته الذاتية نحو أمته وقضاياها، إنها ضرب من الإخلاص والحب، وشعور بالمشاركة الفعلية في تحمل العبء، فالعبيد يؤدون دورهم في الحياة، إن رضوا أو سخطوا، والأحرار يجدون دوافع سامية، تشرق في قلوبهم وأرواحهم، وتملؤهم اعتزازًا بأنهم حماة الوطن وتراثه ودينه...

هم الوطن.. والوطن هم.. نسيج واحد لا يمكن تجزئته أو فصله..

والكلمة الحرة لا يخافها إلا المرضى والمتشككون والطغاة، ولا يحاربها إلا منحرف، لندع الكلمة الحرة تنطلق، ولنترك الأفكار تناقشها، فالسلطة ليست وحدها صاحبة حق الرفض والقبول، فالمصلحة العامة، كما هو واضح من تركيبها، تكتسب صفة العمومية، وهي مصلحة القائل والمتلقي، والمؤيد والمعترض، والذين يرفضون الكلمة الحرة جبناء، أو يشعرون بإثم خفي.. ذلك الشعور بالإثم الذي يعمل في قلوب اللصوص والكاذبين والمتآمرين.. ويجب أن يدرك المثقفون أن الكلمة لن تكون حرة إلا إذا تحررت «الأداة» التي تحمل هذه الكلمة.. أي لابد أن تتحرر الصحافة من قبضة السلطة، وأن تملك وسائل النشر مصيرها وحريتها في الحركة.. وأن تتحرر الجامعات من سيطرة الإرهاب والقهر، وأن يترك للنقابات حرية التعبير دونما عنف أو اضطراب أو فوضى.

وبالنسبة للعاملين في حقل «الدعوة الإسلامية»، أعتقد أنه يجب أن يضعوا قضية الحرية على رأس الموضوعات التي يعالجونها، ففي ظل الحرية المتاحة يستطيع حملة الفكر الإسلامي أن يتكلموا.. وينشروا كلماتهم.. ويواجهوا انحراف العقائد، ويلتقوا بجمهور الأمة دون تهيب.. عندئذ يستطيع الفكر الإسلامي -في ظل الحرية- أن يدخل في حياة الناس في النادي والمصنع والشارع والمدرسة والحقل.. أن يعمل في النور، ويرفع

هامته، دون أن تصطدم رأسه بسقف زنزانة ضيقة، أو يهوي عليه سوط جلاد، أو تحطمها قبضة طاغية، عندما تتحقق الحرية، ينفتح الطريق أمام القيم العامرة بالحب والإيمان والعدل.. ويجب أن يؤمن المثقفون في أمتنا، بوحدة قضية الحرية، فالحرية ليست وقفًا على جماعة دون جماعة، ولا حزب دون حزب، ولا مذهب دون مذهب. الحرية حق الجميع في الوطن الواحد أو الأمة الواحدة.. ولا إكراه على الإطلاق.. حتى الدين «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي».

إن مصادرة الينابيع العذبة الصافية، وترك الموارد الآسنة، قد لوث أمعاءنا، وأصابنا بجراثيم الخوف والحقد والانطوائية، وأورثنا الجبن والضعة والهوان، وإن سيطرة المغرضين على مقدرات الأحرار، ومنابر الرأي، وأجهزة الاعلام، قد سمم الجو بغازات خانقة، لا تنمو فيها إرادة، ولا تزدهر فيها براعم، ولا تثمر فيها فضائل...

فلنرفض الإرهاب الواقع على الآخرين كما نرفضه بالنسبة لنا أو لأصدقائنا، ويوم أن يكون فهمنا للحرية فهمًا حزبيًا قبليًا عنصريًا، فلن تكون تلك هي الحرية، ستكون ضربًا من الزيف والظلم الذي لا يرضاه الله ورسوله.

والحرية بالنسبة للمسلم الفرد، تحددها آداب دينه، وأوامره ونواهيه. وخروجه عن هذه الحرية الذاتية، أمر يعاقبه الله عليه، ولا حكم لأحد عليها إلا إذا تخطت دائرته الشخصية، وانعكست على أخلاقيات المجتمع ونظمه وحقوق أفراده، في ظل المبادئ التي كفلها الله لعباده.. والإضرار بالمجتمع أو الآخرين، أمر لم يترك توضيحه أو البت فيه لإدارة حاكم أو هيئة أو طائفة.. وإنما أوضحته آيات الكتاب الكريم، وتعاليم الرسول، وسيرته العطرة.. ولاشك أن العودة بالمقاييس الخاصة بالحرية إلى خالق الكون، يحيط الحرية بكفالات مقدسة، ويحميها بنصوص إلهية تسمو فوق طاقة البشر، وفكرهم وفلسفاتهم، وتضع حدًّا للخلافات المذهبية والشخصية بين الناس.. ولنحذر في هذا المقام تأويلات الخائفين من العلماء، أو المأجورين من الأدعياء، ولنعتصم بالمنابع الأصيلة، والمصادر النظيفة.

إن ما يصيب الحرية في المقتل أن نحرص عليها لأنفسنا، ونحرّمها على معارضينا.. والحرية نعمة من نعم الله الكبرى، والله سبحانه لم يحجب كثيرًا من نعمه عن الإنسان والحيوانات والحشرات.. والحرص على الحرية يحتاج إلى بطولة.. إلى تضحية، فعندما تنتكس الحرية، تضطرب الموازين، وتسوء العاقبة،

ويغرق الناس في جو من الفتن كقطع الليل المظلم، وكلما امتد سلطان الظلم، ازداد الجبابرة تشبثًا بنفوذهم، وأمعنوا في غيهم وانحرافاتهم، فيستكبن الناس -ولو إلى حين- إلى الذلة والصمت والخوف، فيستشري الفساد، وتتوقف عجلة التقدم، ويجد أعداء الله والإنسانية الفرصة مواتية للانقضاض على ما تبقى من قيم وعقائد، وتسود الجاهلية من جديد.. ولن تخفى معالم الجاهلية لمجرد عمارات ضخمة تقام، وجامعات كبرى تنشأ، وجيوش مجهزة بأحدث الأسلحة تحشد، ووسائل حضارية تستورد.. فالجاهلية معنى قبل أن تكون مبنى، والجاهلية فكر منحرف، وروح خربة..

واجب المثقفين أن يتغنوا بالحرية في كل زمان ومكان.. أن يجعلوها رسالتهم الأولى، لأنها المناخ الحق لترعرع الفضيلة والقيم الخالدة، وسعادة الإنسان.. أعود فأقول إن هناك فرقًا كبيرًا بين حفظ الأمن، وجلادي الشعب.

وعناصر الأمن في الأمة كثيرة، ولن يكون ضرب المعارضين -كل المعارضين- حفظًا للأمن، ولن يكون الإرهاب، وتجاهل القانون والدستور مدعاة للأمن، لأن أمن المواطن جزء من الأمن العام، فما معنى أن نحفظ الأمن بالوسائل البربرية لحماية السلطة، وفي نفس الوقت نحرق أمن الجماهير، ونحيل حياتها إلى

رعب وجحيم وشكوك.. وأيًا كان الأمر فإن ضرب المواطن، وحرمانه من حق التعبير، وعدم اطمئنانه على كيانه الاقتصادي والروحي والفكري، لن يحقق أمنه، وبالتالي لن يتحقق للوطن الأمن المنشود.

والغريب أن التجارب العديدة، في حياة الأمة، على مدار السنين الطويلة، قد أوضحت هذه الحقائق بما لا يدع مجالًا للشك، وحدث أكثر من مرة أن ردد الحكام وغيرهم ضرورة إقامة الحرية على أسس سليمة، دونها رقابة أو غدر أو اعتساف، لكن سرعان ما تتسرب وسائل العفن، وتنمو مراكز القوة، وتتغلغل المطامع، ويعود الظلام، ويمارس العنف بشتى صوره وألوانه، دون مراعاة لقانون أو ضمير..

ثم أليس للمجرم حق؟ إن المخطئين سياسيًا، خطأ يحدده القانون، لا يمكن أن يتركوا هكذا لتصرف القساة من رجال الأمن، ومن حق المخطئ الذي يكون تحت طائلة التحري والتحقيق، من حقه أن يعامل كإنسان من ناحية المأكل والملبس والمشرب، ومن ناحية رزق أسرته واتصاله بهم من طريق الزيارات القانونية، وتبادل الرسائل، وحق الدفاع عن النفس، وعدم تعريضه لوسائل التعذيب التي كثيرًا ما وصلت به إلى

الموت.. للمتهم حقوق.. وللمجرم حقوق... تكفلها القوانين الدولية، والقوانين المحلية، والخروج عنها خروج على القيم الدينية والإنسانية الشريفة.. وهل ننسى أن حملة السياط بالأمس، وجبابرة السجون في كثير من الدول، قد أصبحوا بين عشية وضحاها مساقين إلى منصة القضاء، تثقل كواهلهم وخطاهم جرائم سياسية.. ونزلوا بالأماكن التي كان ينزل بها ضحاياهم في الماضي، إن حماية أمن المواطن -أي مواطن- سينسحب على الجميع، سيحمي الظالم والمظلوم ويحمي القاضي والمتهم، والمؤيد والمعارض، فالتحولات سريعة، والأيام -كما يقولون- دول، ولا نجاة إلا بالتعويل على القانون، والحصانة الحقيقية للقضاء ورسل العدل، وجعل القضاء بمنأى عن التقلبات، بعيدًا عن التأثيرات والإغراءات والتهديدات.. فالقضاء الحر النزيه هو شرف الأمة، وعنوان أمنها، ومناط حريتها.. هو الحارس الحقيقي لأمن الوطن والمواطن.. ولا معنى لأمن سياسي يفقد المواطن فيه أمنه، فعلى رجال الأمن أن يتيقنوا أن حمايتهم للحرية، وسيادة القانون إنما هو الأمن الحقيقي، والرسالة الصادقة..

ويجب أن يعلم المثقفون أن سقوطنا تحت حماية أمة كبرى، نأتمر بأمرها، ونخطط سياساتنا على هواها، سوف يسلبنا بالتبعية

حق التعبير الحر كأمة، والأمة التي تفقد حرياتها على أعلى مستوى، مستحيل أن تحقق الحرية والأمن لمواطنيها.. وفي التلميح ما يغني عن التصريح.

الحرية وحدها هي الطريق.. ومنها تنبت القيم الفاضلة.. وفي ظلها ترتفع منارة الإيمان والعدل والإخاء.. فلنجعل من الحرية أغنية على كل الشفاة.



محتويات الكتاب



***